علماء ومفكرون معاصرون

لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم





المربّي الأديب والشّاعر النّاقد

تأليف

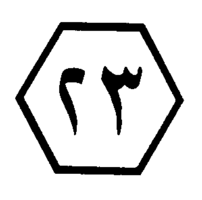
سما زكي المحاسني

دار القلم

دمشق

عُلماء ومُفكّرون مُعاصِرون

لمحاتٌ من حياتهم، وتعريفٌ بمؤلّفاتهم





١٩٠٩ - ١٩٧٢

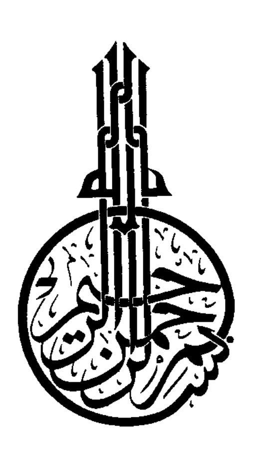
المُربِّي الأَدِيبُ والشّاعِرُ النّاقِدُ

تأليف

سما زكي المحاسني

دار القلم

دمشق



الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

الدكتور زكي المحاسني

بقلم

الأديب الكبير

الأستاذ وديع فلسطين

رعى اللهُ عهداً زاهراً كنتُ أستهلُّ فيه يومي بقراءة باب (محاضرات اليوم) في جريدة الصباح، وهو باب تنشره الصحف بالمجّان يضمّ لائحةً بالمحاضرات التي تُلقى في اليوم نفسه من على المنابر الكثيرة المنتشرة في القاهرة، وكنت أجتهد في التوفيق بين الموعد المحدّد لمحاضرتين أنتقيهما، سواء لموضوع المحاضرة أو لشخصية المحاضر. وما أكثر المنابر التي كانت منصوبة في أوائل الأربعينيات، في جامعة فؤاد الأول (وهي الجامعة الحكومية الوحيدة في ذلك الوقت) ونقابة الصحفيين، وجمعية اتحاد خريجي الجامعات، وجمعية خريجي دار العلوم، وجمعية خريجي كلية التربية، وجمعية خريجي جامعات فرنسة وسويسرة وبلجيكة، وجمعية الشبان المسلمين، وجمعية الشبان المسيحية، وقاعة يورت التذكارية، والقاعة الشرقية بالجامعة الأمريكية، وعشرات غيرها من المنابر التي لا تكفّ عن النشاط على مدار العام، حتّى في أشهر الصيف.

واتفق في ذلك الوقت أن كان الشاب السوري زكي المحاسني موفداً من حكومته إلى القاهرة للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في الأدب العربي، وكانت تصحبه الأديبة اللبنانية المولد وداد سكاكيني (١٩١٣ - ١٩٩١). وفي حين كان زكي المحاسني عاكفاً على دراساته العليا، كانت وداد سكاكيني تنشر مقالاتها وأقاصيصها في المجلات المصرية، فاكتسبت شهرة فاقت شهرة زوجها.

وكان المحاسني ووداد من الوجوه الدؤوبة التي أصادفها يومياً كلّما سعيت إلى الإصغاء إلى محاضرة، ممّا شجّعني بعد محاضرةٍ لإبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠ ـ ١٩٤٩) على تقديم نفسي إليهما بصفتي الصحفية، فرحَّبا بي ترحيباً كريماً كان يتجدَّد كلَّما التقينا في محاضرة تالية، ولم نلبث أن ارتبطنا بصداقةٍ وثيقةٍ لم تفقد حرارتها بسبب البعد الجغرافي أو لأي اعتبار آخر. وفي صحبتهما زرنا كثيرين من أعلام الفكر: العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤)، وسلامة موسى (١٨٨٧ ـ ١٩٥٨)، وفؤاد صروف (١٩٠٠ ـ ١٩٨٥)، ونقولا الحداد (١٨٧٠ ـ ١٩٥٤)، والدكتور أمير بقطر (١٨٩٩ ـ ١٩٦٦)، وسيد قطب (١٩٠٦ ـ ١٩٦٦)، والدكتور محمد مندور (١٩٠٧ ـ ١٩٦٥)، ومحمد عبد الغني حسن (١٩٠٧ ـ ١٩٨٥)، والشاعر حسن كامل الصيرفي (١٩٠٨ ـ ١٩٨٤)، والدكتور محمد صبري السوربوني (١٨٩٠ ـ ١٩٧٨)، والدكتور أحمد فؤاد الأهواني (١٩٠٨ ـ ١٩٧٠)، وأحمد حسن الزيات (١٨٨٥ ـ ١٩٦٨)، وحبيب جاماتي (١٨٨٧ ـ ١٩٦٨)، وغيرهم.

وكنت أجد في هذين الزوجيْن أسرةً مثالية لاجتماعهما على حبِّ الأدب وانصرافهما إليه دون سواه من الاهتمامات الأخرى، وكانا يختاران دائماً الإقامة في جزيرة الروضة الجميلة التي تقع بين نهر النيل وفروعه، بسبب قربها النسبيّ من الجامعة التي درس فيها المحاسني، ثم لأنّ حي الروضة اشتهر بكثرة المقيمين فيه من المشتغلين بالأدب والفكر مثل الدكتور شوقي ضيف، والشاعر عبد الرحمن صدقي، والدكتور محمد مندور، ومحبّ الدين الخطيب، وأحمد الشايب، ودريني خشبة، وخالد محمد خالد، والدكتور محمد كامل حسين (المتخصص في الأدب الفاطمي)، ومحمد عطية الإبراشي، وعالم الروح أحمد فهمي أبو الخير، وغيرهم، فارتبط المحاسني وزوجته بمعظم هؤلاء بصداقات وثيقة. بل إنّ الشاعر علي الجارم كان يقيم بدوره في هذا الحي، ولكنه توفي قبل سُكنى المحاسني فيه.

عاش المحاسني ووداد في القاهرة في فترة طلب العلم بين عامي ١٩٤٣ و١٩٤٧ ثم عادا إلى دمشق.

وعندما عُيِّنَ المجمعي الكبير الأمير مصطفى الشهابي (١٨٩٣ ـ ١٩٦٨) وزيراً مفوضاً ثم سفيراً لسورية في القاهرة، اختار الدكتور زكي المحاسني ليكون الملحق الثقافي في السفارة والمندوب السوري في اللجنة الثقافية بالجامعة العربية، فأقام المحاسني في القاهرة بين عامي ١٩٥٠ و١٩٥٦، وتحوَّلت السفارة في عهد الشهابي والمحاسني إلى مجمعٍ أدبيٍّ يؤمُّه المشتغلون بالفكر في مصر بلا موعد، فيجدون من السفير والملحق ترحيباً بغير حدود. فكانت هذه هي أطول فترة قضاها المحاسني وزوجته في القاهرة، وإن ترددا عليها غير مرّة بعد ذلك، سواء لحضور مؤتمرات أدبية أو بسبب اختيار المحاسني عضواً في لجنة تخطيط التعليم العالي بين مصر وسورية في عهد الوحدة، أو لكون وداد اختيرت عضواً في البرلمان الاتحادي المصري السوري.

ويسوقنا الحديث عن الأدباء الذين مثّلوا بلادهم تمثيلاً دبلوماسياً في القاهرة إلى إيراد أسماء بعض من عرفناهم من الأدباء في السفارة السورية ومنهم الشاعر نزار قباني، وأسعد محفّل (الشاعر باللغة الفرنسية)، والسفير الشاعر الدكتور عيسى درويش، كما عرفنا الشاعر عمر أبا ريشة، الذي كان في زيارةٍ للقاهرة في زمن الوحدة، وكان يمثّل دولة الاتحاد في أمريكة الجنوبية. وعرفنا في سفارة العراق الدكتور محمد بديع شريف، ورفائيل بطي، وعبد الحق فاضل، ونجدة فتحي صفوة. وعرفنا في السفارة اللبنانية خليل تقي الدين، والدكتور حليم أبو عز الدين، والدكتور مدحت فتفت. وعرفنا في السفارة الإيرانية الدكتور علي دشتي، والدكتور نور الدين آل علي، ومنوجهر مؤدّب زاده. وعرفنا في السفارة الهندية الدكتور سيد حسين، وآصف علي أصغر فيضي. وعرفنا في السفارة الأمريكية الدكتور جون بادو، والدكتور بايارد ضودج. وأقول كصحفي عاصر هؤلاء جميعاً وعرفهم وتعامل معهم: إنهم كانوا

يتخلَّـون عن صفاتهم الدبلوماسـية البروتوكوليـة المتحفظة، ويمحضوننـي صداقتهم حتى تمنيت لو أن السلك الدبلوماسي كله أُسند إلى رجال فكر وأدب وشعراء، لأنهم أقـدر من سواهم على تقديم القيم الروحية الأصيلة التي توثّق الصِّـلات بين الشعوب، وتُعين على تحقيـق التفاهم العميـق بين الثقافـات والحضارات، وتقلّل من التناقضات المترتّبة على اعتبارات العنصرية الضيّقة.

ولد الدكتور زكي المحاسني في دمشق في عام ۱۹۰۹ وتوفي والده وعمره عامان دون أن يترك له صورةً يتأمل فيها ملامحه، وتنقّل بين مدارس العاصمة السورية إلى أن نال الإجازة الجامعية من كلية الحقوق السورية عام ۱۹۳۱، وزاول المحاماة بعدها لفترةٍ قصيرة. ولكن شغفه بالأدب أعاده إلى دراسته في الجامعة السورية، فنال إجازتها في عام ١٩٣٦. واشتغل بعد تخرّجه بتدريس اللغة العربية وآدابها في أنطاكية ثم في دمشق إلى أن أوفدته حكومته إلى القاهرة لمتابعة الدراسات العليا في جامعتها، وعاد بعد نيلـه درجتي الماجسـتير والدكتوراه إلى تدريس الأدب العربي في كلية الآداب الحديثة بجامعة دمشق، وعُيِّن مديراً للتراث بوزارة الثقافة السورية، واجتذبه التدريس من جديد في كلية الشريعة بجامعة مكة المكرّمة وفي كلية التربية في الجامعة اللبنانية. وفي غضون ذلك اختير عضواً مراسلاً في المجمع الملكي الإسباني عام ۱۹۷۱، وعضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ۱۹۷۲ بتزكيةٍ من رئيسه الدكتور طه حسين، ولكن المرض حال دون مشاركته في أعمال المؤتمر السنوي للمجمع، وتوفي بُعَيْد انتخابه في الثالث والعشرين من آذار (مارس) ۱۹۷۲، وأطلق اسمه على الساحة المجاورة لجامع الإيمان في حي المزرعة بدمشق. وفي مناسبة الذكرى الأولى لوفاته، أصدرت زوجته كتاباً تذكارياً عنه بعنوان (تحية وذكرى الدكتور زكي المحاسني) حرَّر فصوله الذين عرفوه في أدبه ونضاله من أعلام المفكرين والأدباء في الوطن العربي.

وللدكتـور المحاسـني طائفـة غير قليلـة من الكتب الأدبيـة التي صاغ فرائدهـا، منها (شـعر الحرب في أدب العرب)، وهو رسالته لنيل درجـة

الدكتوراه، و(أبو العلاء ناقد المجتمع) وهو رسالته لنيل درجة الماجستير، و(النواسي شاعر من عبقر)، و(المتنبي)، و(إبراهيم طوقان)، و(أحمد أمين)، و(عبد الوهاب عزام)، و(نظرات في أدبنا المعاصر)، و(الأدبي الديني)، و(أساطير ملهمة)، و(الشاب الظريف)، و(فقه اللغة المقارن)، و(دراسات في تاريخ النهضة العربية المعاصرة) بالاشتراك مع الدكتور محمد شفيق غربال والدكتور أحمد عزت عبد الكريم والدكتور بديع شريف، و(الأدب العربي) بالاشتراك مع الدكتور جميل سلطان، و(في التراجم والنقد)، و(قراءات أدبية مدرسية وتحليلية). وله رسالة عن (أدب الملاحم والملحمة العربية) كما حقَّق (ديوان الشريف العقيلي).

وللدكتور المحاسني عدد من الكتب المخطوطة، منها ديوانه، وكذلك ديوان (الملحمة العربية) وهو يضم عشرات المشاهد الشعرية التي تمثّل تاريخ أمة العرب من بداياتها.

وعندما صدر كتابه الجامع (شعر الحرب في أدب العرب) رغبتُ في تكريم المحاسني تكريماً يعوّضه عن أي جحود صادفه، فرجوتُ أستاذي العقّاد أن يتناول الكتاب بقلمه المنصف. وسرعان ما لبَّى العقاد رجائي، وكتب عنه مقالاً نُشر أولاً في مجلة (قافلة الزيت) السعودية التي كنتُ أمثّلها في مصر، ثم في كتابه (أشتات مجتمعات)، أثنى فيه على الكتاب ثناءً مستطاباً حيث قال: «خير ما يُوفى به حقّه من الاستحسان هو أن يُوفيه القارئ حقّه من المطالعة وإنعام النظر والمشاركة في التعليق والاستدراك... ولا نطيل في التمثيل لمحاسن الكتاب، فإن الأمر يُلجئنا إلى الاختيار، وليس أصعب منه في كتابٍ هو نفسه قائم على الاختيار، أو على حُسن الاختيار، وقدرة مؤلّفه على هذا الإحسان مكفولة بما تيسّر له من سعة المادة، وما توافر عليه من سعة الاطّلاع».

ولم يكتفِ العقاد بذلك، بل وجّه إليّ رسالةً محضني فيها شكره لأنني «أيقظت غفلته ونبّهته إلى هذا الكتاب النفيس وأتحتُ له متعة ولذاذة فكرية نعم بها في أويقاتٍ طيبة».

ولئن جاءت هذه الشهادة تتويجاً لأدب المحاسني من قمّة عليا كقمّة العقاد، فهي تغني عن أي شهادة أخرى على أدبه ومناهجه الأكاديمية وأسلوبه الناصع الرصين وتفقّهه في اللغة وآدابها في العربية وفنونها. ولا غرو، فقد عاش كل عمزه موصول الأسباب بالأدب من جميع جوانبه.

ولكنّني أغمط المحاسني حقّه إنْ لم أتحدّث بكلِّ إكبارٍ عن شخصيّته التي حبَّبت فيه كل مَنْ عرفه. فهو، على علمه، شديد التواضع، يحنو على الناشئة حنوّاً أبوياً تلقائياً، ولا يضنّ عليهم بالتشجيع وجميل التوجيه. وهو يتصرّف بعفويةٍ نبيلة في المواقف الإنسانية، جازعاً في مواقف الجزع، متعاطفاً حيث يُطلَبُ التعاطف، تفضحه مشاعره حتى ولو حاول كتمانها، وما أطول قامته في مواقف الكرامة. كان عفّ القلم واللسان، ينقد ولا يجرح، ويتطوّع للدفاع عن أي قضية إذا ما اختلّت فيها الموازين. عزَّ عليه أن يرى حبيب الزحلاوي ـ الذي بدأ حياته بائعاً في قسم الأحذية بمتجر سليم وسمعان صيدناوي وانتهى بائعاً لخردة الحديد ـ وقد وقف كتابه (شيوخ الأدب الحديث) على التهجُّم على كبار الأدباء، فخاطبه في مقال منشور قائلاً له: أنت تكتب بهراوةٍ وليس بقلم. ثم قصّ عليه قصة الرسّام الذي رسم لوحة فنية من جُملة عناصرها حذاء، واختبأ الرسام في مكانٍ قريب من اللوحة ليسمع آراء النقاد عن قرب وجاء إسكاف يتأمّل الصورة، فانتقد الحذاء لعيبٍ فيه، ثم انتقل إلى بقية الصورة يعيب فيها على الرسام عمله، فبرز له الرسّام وخاطبه قائلاً: ابقَ في الحذاء! ولعلَّ المحاسني أراد أن يقول للزحلاوي: عُدْ إلى عملك الأوّل في بيع الأحذية!.

وكان المحاسني يبذل مودّاته في غير ضنّ إلى إخوانه الذين عرفهم في القاهرة في سنوات تقرب إجمالاً من العشر، وشعره شاهد على المطارحات الأخوية التي جرت بينه وبين كثيرين من الذين صافاهم الودّ. فإنْ أشرتُ إلى بعضِ مواقفه معي، فإنّما أُشيرُ بالعرفانِ إلى فضلٍ أعرفه بشخصي وله أشباهٌ كثيرة مع أصفياء المحاسني. فعندما توفيت أمي، وجّه إليَّ قصيدةً عارمة بالعواطف

الصادقة جعلها رثاء لأمّه وأمّي معاً. وعندما أفزعتني انكشاريات الحيـاة، فكسرتُ القلم، وجفوت المحابر والأوراق، وجّه إليّ قصيدة كان مما قاله فيها:

حُكْـمُ أَقْـدَارِنَـا بـأنَّـا شُمُـوعٌ لا نُحَـاوِلُ إطفـاءَهـا نَحْـنُ قَسْـرا

وعندما قرّرتُ الهجرة النهائية ودّعني بقصيدةٍ مفعمة بالحسرات. وعندما اكتشفتُ أنني كنت في هجرتي كالمستجير من الرمضاء بالنار، فعدت بخفي حنين، وجَّه المحاسني إليّ قصيدة جديدة أُورد أبياتاً منها بوصفها نموذجاً من شعره حيث قال:

عَـادَ الهَـزَارُ إلـى مَـرَابِعِـه فَقُـلِ السَّـلامُ علـى سَـوَاجِعِـهِ
قَـدْ كُنْـتُ شَـطَّ النِّيْـلِ أُنْشِـدُه شِعْـري، وأَمْـرَحُ فـي مَـرَابِعِـه

وعاد يحيّيني بقصيدة أخرى قال فيها:

خَلِيْلِي، لك القلبُ الذي أنتَ أَهلُـهُ ولـو سَـاءَتِ الدُّنْيـا تدرُّ مناهِلُـه
أُفدّيـك بالعينِ التـي هـي نـاظِري وبـالمَالِ لو لانَتْ لـديَّ مَبَاذِلُـه
ولكـنَّ نفسـاً بيـن جنبيْـكَ كـالتـي طوى (المتنبـي) مثلَها وغوائِلُـه
ونَصْبِـرُ للبَلْـوى ولا بـدَّ مـن غـدٍ سيُدْرِكُنا فيه من السَّعْدِ عَاجِلُه
(فـلان) لأنْـتَ الطَّـوْدُ ليسَ تَنـالُـه زعَازِعُ مهما اشتدَّ في الرِّيحِ شامِلُه

وقد أصابَ الدكتور عبد السلام العجيلي في تصويره للمحاسني حيث قال: «لم تجمعنا صداقة حميمة، ولا علاقة معلّم بتلميذه. كان أفتى من أن يكون من أساتذتي، وأسنّ من أن أكون من لداته. ومع ذلك كنتُ أحسّ بقربه من القلب كأعزِّ الأصدقاء، لأنَّ نفسه كانت في براءة الأطفال، وأي إنسانٍ يقدر على أن لا يكون صديقاً لطفل، وإن كان ذلك الطفل كبيراً؟ وكنت كذلك أراه خليقاً بأن يكون واحداً من أساتذتي، وإنْ لم أجلس أمامه على مقاعد الدرس. أليس هو من الطبقة التي انفتحت على العالم المعاصر، عالم الغرب بآدابه الثرية وحياته المُغرية، ومع ذلك لم تأسرها مفاتن ذلك العالم، بل ظلّت وثيقة

الصلات بماضيها، شديدة الاعتزاز بقوميتها، مخلصةً لأدبها القديم والحديث ولتاريخها المجيد؟».

كما قال عنه بشير زهدي محافظ متحف دمشق: «كان المحاسني ينشد الخلود، ويتحدَّث عن الخالدين، فاستحقَّ مكانه بين عمالقة الخالدين من شعراء ومفكّرين وأدباء وإنسانيين».

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدّمة

عُرف الدكتـور زكي المحاسـني في الوطن العربي من خـلال كتاباتـه ومؤلفاته، التي أمدَّت المكتبة العربية بدراسات وبحوث قيمة، فقد كان باحثاً وأديباً، وكاتباً وشاعراً، واسع الثقافة، متمكناً من اللغة، وقد توفي وهو في أوج نضجه وعطائه، إذ كان لا يزال في الثالثة والستين من عمره، وكان نشاطه الأدبي متدفقاً حتى آخر أيامه.

هو إذن علم من أعلام الأدب والشعر في القرن العشرين، تعد مؤلفاته مرجعاً لكل من يودّ دراسة الأدب العربي، وقد شهد الأديب الكبير عباس محمود العقاد بأن كتابه (شعر الحرب في أدب العرب) سـيظلّ مرجعاً لكلّ من يحاول دراسة هذا الموضوع، وقد كـان أولَ من نال شـهادة دكتوراه الدولة من أكبر جامعات مصر.

وما أجدره بدراسـة تلقي الضوء على جوانب كثيـرة من أدبه الحافل، وتقدمه إلى قراء العربية ومحبي الأدب، ولعل كتابي عنه كعلم من أعلام الأدب العربي المعاصر يُوفَّقُ إلى تعريف القراء به.

بدأتُ هذه الدراسـة بالحديث عن نشـأة المحاسـني ونبوغه المبكر ثم دراسته وتعلمه وممارسته تدريس الأدب العربي في الجامعة السورية، واقترانه بالأديبة الكبيرة وداد سكاكيني مما جعل منهما ثنائياً متجانساً، فكانا من أبرز الأدباء في الأقطار العربية سورية ومصر ولبنان، ومن أهم الوجوه الأدبية التي عاصرت أدباء كبار في هذه الأقطار الثلاث.

وتناولت جانباً هاماً من أدبه هو الشعر، وبينت خصائص هذا الشعر وموضوعاته، وقد كان يكشف عن أسلوب مشرق ونفس صافية، مع نماذج من أجود قصائده في مناسبات شتى: قومية ووطنية، وفي الوصف وغير ذلك، فديوانه لم يطبع بعد..

وأشرتُ إلى اهتمامه بالملحمة العربية الإسلامية وإعجابه بها، وقد كان من القلائل الذين صوروا البطولات العربية في شعرهم، ومن هذه القصائد (يوم ذي قار، معركة بدر، علي، الحسين، يوم اليرموك، عمر بن الخطاب)، وقد بلغ عددها (٢١) قصيدة، وأوردت نماذج من هذه القصائد الرائعة التي تشيد بالتاريخ والبطولة الإسلامية.

ثم تناولت أدبه في النثر، ومنه مقالاته التي نشرها على مدى ما يقرب من نصف قرن في المجلات والصحف البارزة في الوطن العربي كـ(الرسالة) و(الأديب) و(المعرفة) و(الحديث) و(القافلة) وغيرها..

وانتقلت بعد ذلك للحديث عن مؤلفاته من الكتب فقدمت تعريفاً لكل منها ولما تناوله فيها بالبحث والدراسة من آراء وأفكار، فقد ألف كتباً عن أدباء وشعراء ومفكرين كان لهم شأن كبير في مسيرة الأدب العربي، منهم المتنبي، وأبي العلاء المعري، وأبي نواس، والشاب الظريف، وغيرهم من الشعراء المبرزين في تاريخ الشعر العربي القديم.

ومنهم شعراء حديثون كإبراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب فلسطين، وتعد هذه الدراسة من أقدر الدراسات الأدبية في تصوير أحد الشعراء الملهمين الذين تفاعلوا مع أحداث أمتهم.

كذلك تناول المحاسني في مؤلفاته أدباء كان لهم دور بارز في تطور الحركة الفكرية والأدبية الحديثة كأحمد أمين وعبد الوهاب عزام.

أما ما كتبه في الدراسة الأدبية لمناحٍ هامة في تاريخنا اللغوي والأدبي فيأتي

على رأسها: (شعر الحرب في أدب العرب)، (ونظرات في أدبنا المعاصر)، (ودراسات في تاريخ النهضة العربية المعاصرة)، ومنها ما لم يطبع بعدُ مثل (فقه اللغة والمقارن).

وساهم في مجال التحقيق بتحقيقه لديوان الشاعر العقيلي فكان مشاركاً في تحقيق التراث العربي.

وقد زودتُ الدراسة ببيليوغرافيا تضمنت أعمال الأديب الشاعر الدكتور زكي المحاسني من مقالات وبحوث، مع قائمة بالمراجع شملت ما كُتب عنه.

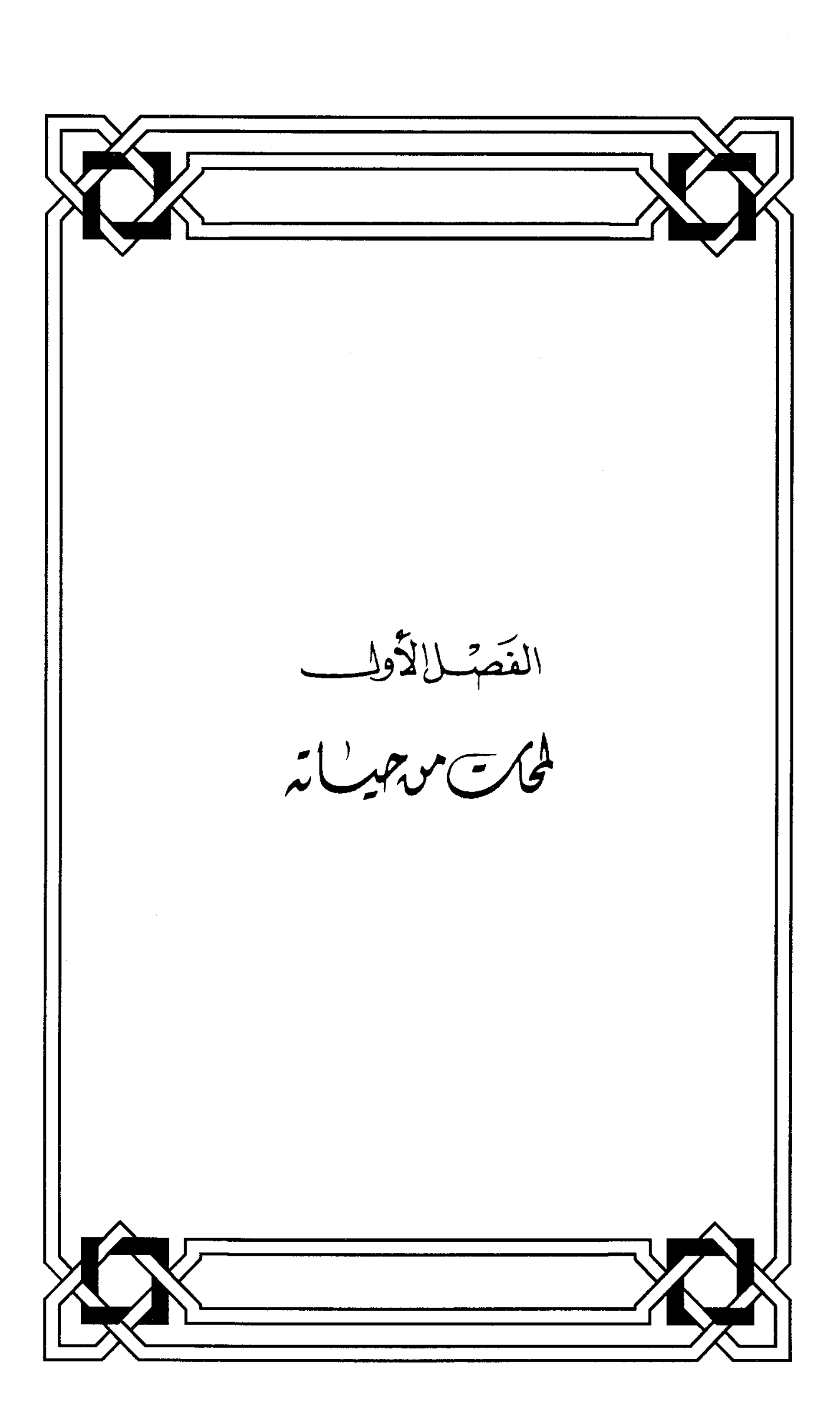
وإنني أتقدّم بأجزل الشكر والتقدير لدار القلم لتفضلها بنشر هذا الكتاب في سلسلة أعلام ومفكرون معاصرون التي تقوم بإصدارها وتُعرّف من خلالها القرّاء بأبرز الأعلام المعاصرين من الأدباء والباحثين في الوطن العربي.

والله ولي التوفيق.

دمشق في ١٢/ ٣/ ١٤٢٣هـ
٢٣/ ٥/ ٢٠٠٢م

سماء زكي المحاسني





الفصل الأول

لمحات من حياته



الفصل الأول

لمحات من حياته

١ ـ مولده ونشاته:

ولد زكي المحاسني في دمشق سنة (١٩٠٩م)، وكان والده (شكري المحاسني) من كتّاب المحكمة الشرعية بدمشق، لباسه العمامة البيضاء والجبة السابغة، وقد توفي وعمر ولده زكي سنتان، ولم تكن له صورة، فراح يسأل أمه (سارّة البحري) وهي سيدة عابدة تقية عن شكل أبيه فقالت له: انظر المرآة، ياولدي، تجد فيها صورة أبيك!.

ويقول المحاسني[1]: «لأذكرنَّ ما حييتُ أني لم أسمع بموت والدي، ولم أحضر وفاته إذ كنت ابن سنتين، والظاهر أن أمي أخذتني إلى دار أهلها، فتلبثت عندهم معها بعد موت والدي سنتين، فلمّا بلغت أربعةً من سني عمري جيء بي إلى عمي (رفيق المحاسني) شقيق والدي، وكانت داره في جوار المحكمة الشرعية، وكان هو بوظيفة مدير للأيتام».

ولمّا رآه عمه في صحن داره قال له بصوت عنيف وبقلب جاف: أبوك مات من سنتين وكنتَ مع أمك، فإذا طاب لك العيش معها فابق عندها.

ومنذ ذلك الحين رباه عمه وكفله، ولم تنجب زوجة عمه ولداً، فاتخذه ولداً له، لكن زوجته كانت ظالمة وتكره أمه، وبلغ بها الكره أن منعت أمه من المجيء للقائه في دار عمه، لكن أمه الحنون كانت تبكر إلى باب مدرسته لتراه وتطمئن عليه.

---

(١) (صفحات من مذكرات يتيم) في فصلين بقلم زكي المحاسني (غير مطبوعة).

هكذا نشأ المحاسني يتيماً، فقد والده مبكراً، ثم أصبح يتيم الأبوين عندما لقيت أمه وجه بارئها، وهو لا يزال شاباً في مقتبل العمر.

وقد قاسى المحاسني طفلاً الأمرّين، في إقامته بدار عمه، فقد افتقر عمه وكان مرتبه زهيداً، وكادت زوجة عمه أن تحرمه من المدرسة، وتجبره على العمل في دكان أحد التجار، إلا أن أمه عندما علمت بذلك لجأت إلى عم زكي (شقيق والده من أبيه) وكان في ذلك الحين قاضياً بدمشق ويدعى محمد المحاسني، وشكت إليه أمر الفتى زكي، فطيب خاطرها، وأمر بإدخاله المدرسة التجهيزية (مكتب عنبر) وكان مديرها الأستاذ زكي التميمي.

وانتظم الطالب زكي المحاسني في الدراسة في الصف السابع ـ وكان أول الصفوف الثانوية بمكتب عنبر.

ومضت السنوات في الدراسة، لم يَعرف فيها تقاعساً، فكان يرتقي من صف إلى صف أعلى بدرجات متفوقة حتى بلغ الصف الحادي عشر، ثم نجح إلى الصف الثاني عشر، وأدى امتحان البكالورية سنة (١٩٢٨م)، وكانت أول بكالورية يطبق نظامها في سورية.

وقد أحب المحاسني القراءة، وشغف بمطالعة الكتب، فكان أثناء دراسته يبحث عن المعرفة، ويقرأ حتى يرتوي ويُتبع هذا بكتابة بعض الخواطر، ووفقه الله في امتحان البكالورية، فنال علامة فائقة في التاريخ القديم، وامتلأ قلبه سروراً حين أُعلنت نتيجة الامتحان، فإذا به ينال الدرجة الأولى في البلاد السورية جمعاء، فسمح المسؤولون في وزارة المعارف بإعفائه من أداء البكالورية الثانية.

ولما ودع المحاسني (مكتب عنبر) الذي قضى فيه أياماً لا تنسى، كان وداعه مقروناً بفرحة وغصة، أما الفرحة فلأنه نجى من بعض عقبات تخللت دراسته، وأما الغصة فقد عزَّ عليه مفارقة دار كريمة عرف فيها كرام الأساتذة طوال خمس سنين من عمره.

وهكذا تهيأ المحاسني لدخول المرحلة الجامعية من دراسته، واختار كلية الحقوق، فقد كان الكثيرون من أسرته من القضاة والمحامين، ففي الربع الأول من القرن العشرين لمع من أسرة المحاسني الأصيلة العلاَّمة محمد المحاسني شيخ القضاة في دمشق، ثم نبغ ولده القاضي الكبير فؤاد المحاسني والذي عمل محامياً فيما بعد، وقد عرفته المحاكم العليا والقضايا الوطنية. وبرز أيضاً الشيخ التقي محمد صالح المحاسني الذي كان عليماً بدقائق الأحكام الشرعية والإرثية والفتوى حافظاً للقرآن الكريم راوياً للشعر والتاريخ المعاصر.

ولما حصل المحاسني على الإجازة الجامعية من كلية الحقوق بدمشق، وكان عمره يومذاك اثنتان وعشرون سنة، فوجئ بوفاة أمه ولم تتجاوز الخمسين بكثير، وظل المحاسني وفياً لذكرى هذه الأم الحنون التي توفيت قبل أن تذوق من كسبه ما ينسيها مرارة الليالي التي سهرتها من أجله، وقد عبر المحاسني عن تأثره بها فقال[١]: «عشت بعدها باكياً عليها في شعري، وكانت حنوناً رؤوماً، ولن أستطيع أن أنساها حتى أموت، وإني لأحيا كل يوم ناظراً إلى محياها الباسم من وراء الغيوب».

وقال من قصيدة بعنوان: (قطار الحياة)[٢]، ذاكراً أمه:

فَدَيْتُكِ يا أُمّي لو ان الردى يُفدى	فبُدِّلْتُ عيشاً كان لي عندَه مفدى
أيُطوى بنا كرُّ السنين ولم نكن	لنلقاكِ إلا في الخيالِ الذي نَدَّا
نروحُ إلى المنأى الشريدِ كراكبٍ	قطاراً وفي الأسفارِ في العمرِ لم يهدا
فسار بنا والركبُ يهوي على المدى	يطامِنُ أرضاً أو يغادرها جُرْدا
فراح هاتفي في الملا طيّ ريحه	وطاحَ بيَ الدَّهرُ المبيدُ بما بَدَّا
فقلت لأحلامي: تعالي فبدّلي	بوحدتيَ الأُنسَ الذي كان لي أجدى

(١) لمحة من حياة المحاسني بقلمه، في كتاب: تحية وذكرى، بمناسبة الذكرى الأولى لوفاته، دمشق، ١٩٧٣م.

(٢) صفحات من مذكرات يتيم، الفصل الأول (غير مطبوعة).

فجفَّتْ ولم تُسْعِفْ بوهمٍ مِنَ اللِّقَا وكرَّتْ بيَ الأعوامُ لا تُرْجِعُ المبدا
سلامٌ على عَيْنَيْكِ في الغيبِ (سَارتي) خفوقُ فؤادي فيك لا يَعْرِفُ الحَدَّا

٢ ـ حبه للمعرفة والثقافة:

كان المحاسني منذ صغره محباً للدرس والدراسة، وكانت دار الحديث في العصرونية بدمشق منزلاً لتدريس الحديث، وقد أدرك فيها وهو ناشئ درساً من دروس الشيخ بدر الدين الحسني أكبر محدث دمشقي في صدر القرن العشرين.

وكان أثناء دراسته في (مكتب عنبر) يجتمع مع أقرانه من الطلاب النابهين في منزل أحدهم وهو (مسلم القاسمي بن العلامة الشيخ جمال الدين القاسمي) في حي (باب الجابية) بدمشق، فقد كان لدى والده مكتبة فيها كتب ومراجع كثيرة.

وكانت والدة المحاسني، يرحمها الله، دائمة التشجيع له على الدراسة والاجتهاد بعد أن شبَّ ودلف إلى شهادة الليسانس في الحقوق ثم في الآداب، فكانت لا تفرغ من الدعاء له، وكانت (تُسمِّعُ) له درس المحاكمات من كتابه الضخم، تسمع ولا تفهم، وإنما كانت تشجعه على المضي في الحفظ و(التسميع).

وكم كان يذهب إلى دار الكتب الظاهرية في دمشق، هذه الدار التاريخية العتيقة، لينهل مما تضمنته من كتب في الأدب والشعر.

٣ ـ شهاداته العلمية وعمله:

تخرّجَ المحاسني من مدرسة (مكتب عنبر) سنة (١٩٢٧م)، وكانت أعظم مدرسة في ديار الشام، تخرَّجَ منها رواد الفكر العربي وطلائع النبوغ في العلم والأدب.

ودرس المحاسني بعد ذلك في كلية الحقوق بالجامعة السورية، ونال شهادة الحقوق في سنة (١٩٣٦م)، وفي السنة نفسها نال شهادة الآداب من

الجامعة السورية، وتابع المحاسني تحصيله العلمي فنال شهادة الماجستير من الجامعة المصرية، وكانت أطروحته عن أبي العلاء المعري ناقد المجتمع.

وكان أول سوري يحصل على دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة القاهرة، وكان اسمها حينئذٍ جامعة فؤاد الأول، فقد نال الدكتوراه بتقدير جيد جداً، وكانت أطروحته بعنوان (شعر الحرب في أدب العرب) سنة (١٩٤٧م)، وكان أول سوري حمل هذا اللقب العلمي، فكلفه سبقه وتفوقه حقد الحساد.

أما حياته العملية فقد بدأت بعمله في التدريس كأستاذ للغة العربية وأدبها في التجهيز بأنطاكية وكان ذلك عام (١٩٣٢م)، ثم في تجهيز البنين بدمشق سنة (١٩٣٥م)، وظل يعمل في التدريس الثانوي حتى أوفِدَ إلى مصر لمتابعة دراسته العالية من جامعة فؤاد الأول، وكان ذلك عام (١٩٤٣م)، وقد عُين أستاذاً مساعداً في كلية الآداب بالجامعة السورية (جامعة دمشق) بتاريخ ٩/ ١٢/ ١٩٤٧م، وظل المحاسني يعمل في التدريس حتى عين ملحقاً ثقافياً في السفارة السورية بمصر، وكان ذلك سنة (١٩٥٢م)، ومندوباً في الجامعة العربية للشؤون الثقافية، وعاد إلى دمشق في سنة (١٩٥٦م)، وانتُدب في عهد الوحدة بين مصر وسورية للعمل في (لجنة التربية والتعليم) بوزارة التربية والتعليم.

وبعد ذلك شغل منصب مدير دائرة التراث القديم والمخطوطات بوزارة الثقافة والإرشاد القومي في سنة (١٩٦١م) وحتى عام (١٩٦٥م).

وأوفِدَ أستاذاً معاراً إلى الجامعة السعودية، قسم اللغة العربية في المكرمة عام (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م) وظل فيها حتى العام (١٩٦٦م).

وعمل أستاذاً في الجامعة اللبنانية منذ ذلك التاريخ حتى سنة (١٩٦٩م).

وكان المحاسني في مطلع حياته العملية يعمل في المحاماة بعد تخرجه من كلية الحقوق إلا أن حبَّه للأدب دفعه إلى ترك هذا العمل والانصراف إلى التدريس الجامعي والتأليف.

٤ ـ حياته العائلية:

اقترن د. زكي المحاسني برفيقة حياته الأديبة (وداد سكاكيني) المولودة في صيدا بلبنان، وكانت في ذلك الحين تعمل في التدريس بكلية المقاصد الإسلامية في بيروت، وقد بدأ نبوغها ككاتبة ذات أسلوب متين أخّاذ، وظهر إبداعها في مجال القصة القصيرة والطويلة والمقالة والنقد الأدبي، فذاعت شهرتها كأديبة مرموقة في كل من لبنان ومصر وسورية، وأنجبت ثلاثة أولاد، هم: ذكوان وذكاء وسماء.

وعاش المحاسني مدة طويلة مع زوجته وأولاده في مصر حين عمل في السفارة السورية بها، وتوطدت صداقتهما بعدد كبير من أبرز الأدباء في القاهرة، كتوفيق الحكيم، وعباس محمود العقاد، وطه حسين، وشوقي ضيف، ووديع فلسطين، ومحمد عبد الغني حسن وغيرهم..

وقد جَمعت الأديبة (وداد سكاكيني) مقالات وقصائد عن المحاسني في كتاب بعد وفاته ونشر في العام (١٩٧٣م)، أي بعد وفاته بعام، وساهم في الكتابة فيه عدد من الأدباء والمفكرين في لبنان، والعراق ومصر وسورية، وصدر في دمشق بعنوان (تحية وذكرى).

كان الدكتور زكي المحاسني كما قال عنه الأستاذ الأديب والصحافي الكبير عبد الغني العطري رحمه الله «من وجوه الثقافة الرفيعة في بلاد الشام، وكان مع زوجته الأديبة الكبيرة الراحلة السيدة وداد سكاكيني، يمثّلان ثنائياً أدبياً متناغماً ومتناسقاً، تتطلّع إليه القلوب بالحب والاحترام، وتهفو إلى رؤياه، وسماعه وقراءة آثاره؛ جماهيرُ الأدباء والمثقفين[١].

---

(١) انظر: زكي المحاسني بقلم عبد الغني العطري، في كتابه (عبقريات من بلادي) ص٢١١ـ٢٢٣، دمشق.

٥ ـ شخصيته:

اتسمت شخصية المحاسني، تغمده الله برحمته، بالتواضع والنقاء والاعتزاز والثقة بالنفس، مع ميل للطرافة والتواصل الاجتماعي ولاشكَّ أن تواضعه كتواضع العلماء، وهو يذكّرني بكبار أدبائنا وشعرائنا في تاريخ الأدب العربي في العصور الغابرة، فهم يتّصفون بهذه الصفة الحميدة التي قلَّ أن نلمسها في عصرنا هذا.

وكان صدره يتّسع للكثيرين، فكان يستقبل في دارنا بالمزرعة الأصدقاء وغير الأصدقاء، ويبادلهم الحديث، فينصتون إلى حديثه الجذاب، الذي كان ينمُّ عن أفق واسع، وثقافة عريضة متسعة أصيلة، واطلاع كبير على الثقافات والآداب العالمية، ويربط صلتها بالآداب العربية، وفي بيته كان مثالاً يُحتذى للوالد الجليل الذي يعامل أولاده وأسرته بكل حنان وأبوة، ويتبادل معهم الأفكار والآراء.

وكانت شخصيته السمحة تنعكس آثارُها على أدبه وكتاباته، وقد لاحظ أحدُ أصدقائه من الشعراء وهو الشاعر اللبناني الكبير الدكتور (فوزي عطوي)، خلوَّ شعره من قصيدة في الهجاء أو حتى بضع أبيات فيه، وقال عنه في مقال نشر ضمن مقالات في ذكراه الأولى(١):

«ها أنذا أقلّب بين يديّ صفحات من مؤلفاته القيمة، وأنقّب في بعض مجموعات مكتبتي عن مقالاته وقصائده، فاستوقفني ظاهرة عجيبة في هذا القلم العف، قلما استوقف قراء المحاسني، ألا وهي ظاهرة فقدان طعم الهجاء، بمعناه الفني، فيما خطه نثراً وشعراً».

---

(١) تحية وذكرى، الدكتور زكي المحاسني بأقلام الذين عرفوه في أدبه ونضاله من أعلام المفكرين والأدباء، بمناسبة الذكرى الأولى لمرور عام على وفاته في ٢٣/ ٣/ ١٩٧٢م، ص١٠١.
مقال: كان للمحاسني من اسمه نصيب!، فوزي عطوي، لبنان.

ومهما يكن من أمر فإنَّ شخصية المحاسني السمحة وقلبه الكبير الذي كان يتسع لحب الجميع، لم يعرف الحقد أو الكيد طوال حياته، حتى تجاه أولئك الذين ربما أساءوا له في بعض المواقف في حياته، فكان نزيهاً، يصرف النظر عن الخوض في أحاديث الطعن أو البغضاء.

وكان هذا أيضاً يؤثر في كتابته ومقالاته، وقد كان دوماً يبحث عن الخيِّر والجيد، ويرى الجانب الحسن، ويتغاضى عن بعض الأخطاء الطفيفة، إلا فيما يتعلَّق بالبحث العلمي، فهو بالمرصاد لأيِّ خطأ أدبي له قيمته في تشويه الصورة الصادقة لدراسة الأدب العربي الكبير، من تراث الأجداد، والممتد عبر العصور حتى زماننا.

٦ ـ أسلوبه:

يجمع أسلوب المحاسني في الكتابة بين الجزالة وقوة التعبير والبلاغة العربية، ويتفنن في الأسلوب والمعنى، وقد انعكست نفسيته الشفافة النقية على أسلوبه الذي اتسم بالوضوح في كلِّ مؤلفاته، وابتعد عن التصنّع والتكلف في شعره ونثره.

ويصف الباحث الحقوقي الأستاذ (ظافر القاسمي) أسلوب المحاسني فيقول: «أقبل على الشعر فجوَّد فيه، وكان من فرسانه، ولو أنَّ ديوانه بين يدي لأيدت أقوالي بالكثير من روائعه. وأقبل على النثر، فإذا هو من فحوله: أسلوب قرشي صاف مشرق، لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً».

بل إنَّ رسائله كانت أيضاً تنمُّ عن جمال في اللفظ، وغنًى في اللغة، وقدرة في التعبير بصدق وأمانة.

٧ ـ اعتزازه باللغة العربية، لغة الضاد:

ذكرت عند الحديث عن أسلوبه، بأنه كان يكتب بلغة فصيحة بليغة سواء

في شعره أو في نثره، وامتازت لغته بالجمال وبلغت مبلغاً عالياً في التعبير الأدبي، والبعد عن التكلف والتصنّع.

يقول الأستاذ (أنور الجندي)، أديب السيرة والأعلام وصاحب كتاب (الموسوعة الكبرى في الأدب المعاصر) التي أرّخ فيها للأدب المعاصر وأعلامه عن المحاسني ولغته: «المحاسني شاعر بكل معنى الكلمة حتى لو كتب النثر أو ألف في الدراسات العقلية»[1].

ولغة المحاسني في التعبير الأدبي تنمُّ عن امتلاكه لموهبة الكتابة، وتمسكه باللغة العربية الفصحى، وقد كان له إلمام واهتمام كبير بدراسات اللغة العربية والدراسات المقارنة بين أدبنا العربي والآداب العالمية الأخرى كالأدب الفرنسي والإسباني.

وقد اخترت الأبيات التالية التي تدلُّ عن اعتزازه باللغة العربية لغة الأجداد:

أُمَّ البيانِ، وبِنْتَ الخُلْدِ يالغتي ... جفَّ اللسانُ وفيكِ الفَيْضُ كالدِّيَمِ
يا أُمتي لن تنالي الفوزَ في طَلَبٍ ... إلا بصونِكِ قَدْرَ الضَّادِ في الحُرُمِ
اللهُ أعطاكِ في العَرْبَاءِ منطقَها ... لكي تكوني بها في هامةِ الأُمَمِ

٨ ـ عضويته في المجامع والهيئات الأدبية:

كان د. المحاسني يلقى تقديراً كبيراً من الأوساط العلمية والأدبية في مصر وسورية ولبنان وسائر الهيئات في الوطن العربي وخارجه.

وقد انتُخب عضواً عاملاً في الجمعية الملكية للدراسات التاريخية بالقاهرة سنة (١٩٥٢م)، وكان في هذه الفترة يشغل منصب الملحق الثقافي لسفارة الجمهورية السورية في مصر.

---

(١) الدكتور المحاسني، هذا الوجدان المشبوب، أنور الجندي (مصر)، مقال في كتابه تحية وذكرى، د. زكي المحاسني بأقلام الذين عرفوه في أدبه ونضاله من أعلام المفكرين والأدباء، ص٧٥.

كذلك تم تعيين المحاسني عضواً في أكبر مجامع اللغة العربية في الوطن العربي وهو مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة (١٩٧٢) قبيل وفاته ببضعة أشهر تقديراً من المجمع لعلم من أعلام الأدب العربي المعاصر، عرف بحفاظه على لغة الضاد من خلال كتاباته وفنونه الأدبية المتعددة، واستدراكاً لما أخطأه من عدم إنصاف الزمان له.

قال الشاعر المصري والأديب الباحث الأستاذ (محمد عبد الغني حسن) وهو عضو في المجامع العربية في هذا الصدد[1] في رسالةٍ هنأ بها المحاسني على هذه العضوية:

«لقد زنتم العضوية، وشرَّفتم الزمالة المجمعية، فكسبت بكم أكثر مما كسبتم منها، وربحت بوجودكم فوق ما ربحتم منها».

كما نظم قصيدة بهذه المناسبة قال فيها:

أتحفتَنـي بـروائـع الكَلِـم ... يـا فكـرةً فـي خـاطـري وفمـي
هـذا مكـانُـك غيـرُ مـزدحـم ... فـي مجمـعٍ بـالفضـلِ مـزدَحِـمِ
الخـالـدونَ دعـاك مَجْمَعُهُـمْ ... فـأجبـتَ سَبّـاقـاً إلـى الكـرمِ
نـمَّ الأريـجُ علـى فضـائلكُـم ... والفضـلُ يشـي غيـر منكتـمِ
آثـارُ عِلْمِـك غيـرُ خـافيـةٍ ... ودليـلُ فضلِـكَ غيـرُ متهـم
لـكَ فـي آثـارِكَ للعُـلا قَـدَمٌ ... سبَّـاقـةٌ خـوّاضَـةُ القِمَـمِ
والله مـا كـذبـتْ فـراستُنَـا ... فـي الصَّـاحِـبِ المختـارِ مِـنْ قِـدَمِ
كـانـتْ حـوافِـزُه تُبشِّـرُنَـا ... بغـدٍ علـى الآفـاق مُبْتَسِـمِ
تجـري العـروبـةُ فـي مفـاصِلِـهِ ... جَـرْيَ النَّـدَى فـي أَسْمَـح الـدِّيَـمِ
لـكَ سِيـرةٌ فـي كُـلِّ مُجْتَمَـعٍ ... في الشام، في الأهرام، في الحرمِ

---

(١) تحيـة وذكرى، الدكتـور زكي المحاسـني بأقلام أعلام المفكرين والأدبـاء، دمشق، ١٩٧٢م، ص٣٥.
=

أمَّا الوفاءُ فأنتَ صاحبُه يا حافظاً للعهدِ والذِّمَمِ
لستُ المُهَنِّأَ باختيارِكُمُ إنِّي أُهَنِّىءُ دَوْلَةَ القَلَمِ

وانتُخب أيضاً عضواً مراسلاً في المجمع الملكي الإسباني في إسبانية، وكان الأديب الإسباني الكبير (رامون مينندث بيدال) قد رشَّحه لعضوية المجمع الإسباني، وتم انتخابه سنة (١٩٧٠م)، لعنايته بالدراسات الأدبية العربية وإسهاماته الشعرية والنثرية في الأدب الأندلسي.

وكان المجمع الملكي الإسباني للآداب قد أبلغ الدكتور زكي المحاسني بانتخابه عضواً فيه بالرسالة التي أرخت في (٢٧/ ١١/ ١٩٧٠م) وجاء فيها:

«يسرُّني إعلامكم أنّه بناءً على الاقتراح المقدَّم لصالحكم من قبل الأساتذة السادة (خوان فيرنيت)[١] و(فيدريركو أودينا) و(خوسيه السينا)، في الجلسة المنعقدة من قبل المجمع الملكي في يوم البارحة قد تمَّ انتخابكم بالإجماع عضواً مراسلاً في دمشق».

بارثيلونا في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٠م. أمين السر

٩ ـ عنايته بالتراث العربي:

تتجلى عنايته بالتراث العربي في عمله بالتحقيق، وحبه لهذا العمل من خلال تحقيق (ديوان الشريف العقيلي)، وهو شاعر عربي متميز بأسلوبه العاطفي الصادق.

كما عمل المحاسني مديراً لإحياء التراث والمخطوطات في وزارة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية السورية، وكان لديه اعتزاز كبير بالتراث العربي في الشعر والنثر.

وقد عُني من خلال شعره ونثره بتراثنا العربي العظيم، واهتم بقضية نشر

---

(١) هو باحث ومستشرق إسباني معاصر تخصَّص في دراسة التراث العربي.

هذا التراث وتحقيقه على أسس علمية صحيحة.

وانصبَّ اهتمامه على دواوين الشعر العربي، وكان مما استوقفه من هذه الدواوين (ديوان البحتري) بتحقيق الشاعر المصري الأستاذ (حسن كامل الصيرفي) فقدم د. المحاسني دراسة وافية لهذا التحقيق في حديث إذاعي له من إذاعة لندن تحت عنوان (عالم الأدب)، فأثنى على هذا التحقيق.

١٠ ـ المحاسني الشاعر:

توزَّع إنتاجُه الشعري الغزير على صفحات عدد كبير من المجلات والصحف البارزة في الوطن العربي، وحالت ظروف قاهرة دون طبع ديوانه الشعري، منها مرض زوجته الأديبة وداد سكاكيني، لكنَّ أبناءه يطمحون إلى إنجاز هذا العمل بإذن الله، ليوضع ديوانه المؤلف بين أيدي الباحثين والدارسين للأدب العربي الحديث، وأبرز أعلامه.

بدأ د. المحاسني في نظم الشعر، وهو طالب في المدرسة التجهيزية ثم في كلية الحقوق بدمشق، وكان قد حفظ الكثير من القصائد لشعراء قدماء ومعاصرين، فأخذت تدفعه إلى الكتابة الشعرية تأملات فكرية وسوانح عاطفية وهي زاخرة في شعره، وكانت تنبع من داخله، أو لما يكون حوله من مؤثرات خارجية تركت أثراً في نفسه، فيندفع إلى كتابة القصائد.

ويعبر عن رأيه في الشاعر فيقول[1]:

«إنَّ الشعور ذو عمر يرافق صاحبه، فما كنت أحسّ به وأنا في ميعة الصبا هو غير ما أحس به الآن، ووفاق ذلك يكون دافعُ الشعر، وقد أراني مؤمناً بالتطور الذاتي، فالشاعر مثل النبات ينمو ثم يزدهر ويثمر خلال هذا العمر في الصبا والكهولة، ويجود بما يجود به الزهر في الربيع..».

---

(١) جريدة (الندوة)، المملكة العربية السعودية، ١٣٩٧هـ.

ولا شكَّ أنَّ كلَّ شاعر يتأثر بشعراء آخرين، وزكي المحاسني أُعجب بالشاعر العربي الكبير أبي الطيب المتنبي، حتى إنه وضع كتاباً عن هذا الشاعر المتميز[1].

وكان المحاسني مغرماً بالشعر العربي القديم ذي الأسلوب الجزل القوي، الذي حافظ على عمود الشعر، وكذلك بالشعر العربي الحديث وأعظم شعرائه أحمد شوقي.

ونشأ محباً للشاعر الفرنسي فكتور هيجو، فقرأ شعره في كل دواوينه بالفرنسية، فقد كان المحاسني يتقن اللغة الفرنسية، ويقرأ في الأدب الفرنسي كل ما يصادفه.

١١ ـ خصائص شعره، وموضوعاته:

الدكتور زكي المحاسني كما وصفه الأديب اللبناني (جان كميد) «شاعر رغماً عنه»[2]، فهو لا يتكلَّف الشعر ولا ينظمه إلا عندما تلحُّ عليه نفسه، فيجدها منساقة إلى التعبير بالشعر عما يجول في نفسه من خواطر وتأملات، أو عن هموم أمته، وهو كغيره من الشعراء العرب الذين تأثروا بنكبة فلسطين، وشاركوا أهلها همومهم وقضاياهم، فصوّروا مأساتها بشعرهم.

وتميز في هذه الناحية شعراء، يأتي في مقدمتهم زكي المحاسني، ومنهم أيضاً عمر أبو ريشة، سليمان العيسى، أنور العطار، وعلي دمر.

ومن شعره في هذا الموضوع الأبيات التالية:

مـا هُـزِمنـا لكـي نمـوتَ ونفنـى ونبكـي الحيـاةَ إنْ نحـنُ عِشْنـا

---

(١) انظر التعريف به في الفصل الثاني من هذا الكتاب، ص (٦٨).
(٢) دراسة تطبيقية في الشعر، الشاعر زكي المحاسني، جان كميد.
ـ مجلة الورود، لبنان، ج(٤)، كانون الأول، ١٩٥٩م.

نحنُ قومٌ ما نامَ فينا على الضَّيمِ أبيٌّ ولا على الدَّهرِ هُنَّا
كفكفِ الشعرَ عن مراثي فلسطـ ـينَ فشعرُ الدماءِ أبقى وأغْنى
غَدُنا المُرْتَجَى كما رمتُ آتٍ بنضالٍ سيغسلُ العارَ عَنَّا

فكأنَّ المحاسني قد تنبأ بالنضال المعاصر للشعب الفلسطيني الباسل الذي تجلَّى في الانتفاضة التي تبذل في كل يوم الدماء الغالية من الشهداء الذين يستشهدون في سبيل تحرير فلسطين من الغاصب الصهيوني.

وفي خلال ثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، نجد المحاسني يحث الفتاة الجزائرية على الكفاح مع الرجل فيقول:

فتاةَ الوغى اعصِفي بالخطوبِ فإنَّكِ من نَسْلِ الفتى اليَعْرُبي
لملحمةِ العربِ صيغي النشيدَ ومن غَمْسِ دمِ الشهداءِ اكتُبي
وفي غمراتِ الفداءِ اذكري إلٰهكِ واعتصمي بالنَّبي

وكان المحاسني ينظم القصيدة أحياناً في لحظات، سواء كان وحده في لحظات التأمل والتفكير في غرفة مكتبته بمنزله في حي المزرعة بدمشق، وهي التي كان يسميها (جنته)، أو عندما يكون في مناسبة أو حفلة أو محاضرة فتجده يرتجل الشعر دون سابق تهيئة.

يقول الصحافي النابه الأستاذ عبد الغني العطري يرحمه الله[١]:

«لا أعرف في من عرفت من الشعراء ـ على كثرة من عرفت ـ شاعراً يستطيع أن يجاريه في سرعة النظم وخصب القريحة».

ويمتاز بالنبرة الشعرية الصادقة والصدق في التعبير دونما تكلّف أو تصنّع في صياغة العبارة واختيار الألفاظ.

ويجد الأديب الناقد (جان كميد) في قصيدة المحاسني المعنونة (نسيم

---

(١) عبقريات من بلادي، عبد الغني العطري ـ دمشق.

لبنان) هذه النبرة الشعرية من خلال الأبيات التالية :

يا نسمةَ الصُّبحِ من لُبنانَ، ما صنعتْ　　لـكِ الشـوامـخُ مـن شفَّـاف أبـرادِ؟
مررتُ بالعطرِ فاهتـاجَتْ مباسِـمُه　　وراحَ في الـرَّكبِ لا دربٌ ولا حـادي

والمحاسني في رأيه يملك أداة التعبير الشعري وهو متمكن منها، وهي تطالعنا كيف جلنا في قصائده، ومنها هذه الأبيات من قصيدة (نجوى إلى شجرة من الحور) :

أتشكـو جـولـةَ الأنهـارِ حتّـى　　تـرى الليـلَ البهيـمَ هـدوءَ بـالِ
أطفـرةَ هـائـمٍ أم ثـأرَ غـازٍ　　كـلا العَـزْمَيْـنِ يعيـا فـي القتـالِ

وفي قصيدة (أنطلياس) :

أبيتـاً بـدا فـي قِمَّـةِ الصـوتِ غَنِّنِـي　　مغانيـكَ ضَمَّـتْ كـلَّ لحـنٍ مُرَقْـرَقِ
وقفـتُ على نَبْعَيْـكَ ظمـآنَ مِنْ غدٍ　　سيملـؤُنـي شـوقـاً لحُلْـمٍ مُـزَوَّقِ

ويكشف شعر المحاسني عن أسلوب مشرق ينمّ عن رصانة الطبع وصفاء النفس وشرف الخُلق، فضلاً عن الرزانة.

وكان يرحمه الله من أخصب شعراء البلاد قريحة وإنتاجاً، يرتجل الشعر أحياناً، ويقوله على البديهة والموهبة، فإذا واتاه الإلهام وكثيراً ما يستجيب لشعوره وخياله، تفيض على لسانه وقلمه قصائد بديعة في شتى الأطوار والمناسبات، ويتدفق بالمعاني والصور التي تموج بالألوان والظلال، ويتميز باللغة الفصيحة التي يضاهي بها الشعر العربي القديم.

وكانت آخر قصائد الشاعر المحاسني عن الربيع، وقد تحدّث الدكتور (عمر فروخ) يرحمه الله عن هذه القصيدة في مقال له عن المحاسني بعنوان (صديقي زكي المحاسني)[1] فقال :

---

(١) نشر في كتاب (تحية وذكرى)، الدكتور زكي المحاسني بأقلام الذين عرفوه في=

«ولقد رافقه نظم الشعر في حياته كلها، ذلك لأن الشعر ـ في وجه من وجوهه نفثة الرجل الكريم في دياجي الدهر.

وفي آخر يوم له من أيام الدنيـا وأول يوم من أيام الآخرة أملى على ابنته ثلاثة عشر بيتاً كانت خفقةَ السراج قبل أن ينطفئ، وقد كانت كخفقة السراج شديدة اللمعان، رقيقة الحواشي، صافية الأديم، صادقة الحس، شفافة عن نفس صدقت في حبها لله ولرسوله ﷺ ووثقت بمنزلتها عند الله ورسوله ـ إذ ليس وراء الإيمان الوطيد منزلةٌ تطلب! ولقد طلب أن ترسل هذه الأبيات للنشر (قافلة الزيت، جمادى الأولى ١٣٩٢هـ) مع إحساسه بأن عينيه لن تقرأها».

١٢ ـ الملحمة العربية:

اهتم د. زكي المحاسـني بأدب الملاحم والملحمـة العربية، فبحث موضوعاً لم يبحث قبل ذلك بمثل هذا الاهتمام، وكانت قصائده في الملحمة العربية قد نشرت تباعاً في مجلة (قافلة الزيت) بالمملكة العربية السعودية، وموضوعاتها البطولات العربية والإسلامية، ومنها على سبيل المثال: الحسين، علي، عمر بن الخطاب، يوم اليرموك، معركة بدر، يوم ذي قار، المأدبـة، وغيرها..

وكتب عن أدب الملاحم والملحمة العربية، محاضرة[1] ألقاها في قاعة المحاضرات الأزهريـة الكبرى في الثاني عشـر من مارس سـنة (١٩٦٠م)، بالقاهرة، وكان أثناء ذلك يعمل في الجمهورية العربية المتحدة عضواً بلجنة

= أدبه ونضاله من أعلام المفكرين والأدباء، دمشق: مط. الآداب والعلـوم، ١٩٧٣م، ص٢٦ ـ ٢٧.

(١) أدب الملاحم والملحمة العربية، زكي المحاسني.
ـ محاضـرة في قاعة المحاضرات الأزهرية الكبرى، الموسـم الثقافي الثاني للمحاضرات العامـة (الدورة الثانية)، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م، القاهـرة: مـط. الأزهر، ١٩٦٠م.

التخطيط للتعليم العالي بوزارة التربية والتعليم المركزية.

تحدَّث في هذه المحاضرة عن الملحمة العربية وتاريخها عند العرب، وقال: إنّ العرب عرفوا حكايات قصصية ملحمية في الحرب، وعرفوا أيضاً ضرباً آخر من أروع الملاحم الفنية في (رسالة الغفران) التي أبدعتها عبقرية (أبي العلاء المعري)، كما عرفوا ضروباً جزئية من الملاحم الشعرية في الأندلس.

وكان للملحمة العربية تأثير كبير في الشعر الإسباني الخاص بالملاحم، غير أنه يرى أن هذه الملحمة لم تعرف لدى العرب قديماً بمعناها في أدب الغرب، على أنَّ الشعر العربي في البطولات العربية إبّان الحروب التي خاضها العرب في تاريخهم، قد عبَّر أصدق تعبير عن معنى الملحمة، في ذكره وإشادته بمآثر البطولات.

ثم تناول المحاسني بعد ذلك الملحمة في الشعر العربي الحديث، فقال إن من السباقين في مصر إلى صنع الملحمة الشاعر (أحمد محرم)، فقد تبحّر في تاريخ العروبة والإسلام، فنظم عشرات القصائد والمقطوعات الشعرية في هذا التاريخ، فجاءت أشعاره كصور تاريخية وسماها (الإلياذة الإسلامية)[١].

ونشر الشاعر (عامر البحيري) في مصر أيضاً ملحمة شعرية في خمس فصول، تغنى فيها برسالة الإسلام، وجهاد الرسول عليه الصلاة والسلام سمَّاها (أمير الأنبياء).

لكنّ الملحمة الشعرية بمعناها الفني كان لها تصيب في الشعر العربي الحديث لدى الشاعر اللبناني (فوزي المعلوف)، بملحمته الفنية التي سماها (على بساط الريح)، فجاءت ملحمته بدعاً أدبية، تلاقى صداها في العالم

---

(١) وقد نشرت في دار العروبة بالقاهرة، وقدَّم لها العلامة الجليل الأستاذ محب الدين الخطيب يرحمه الله.

العربي والغربي، وتُرجمت إلى اللغة الإسبانية، وبعض اللغات الأخرى.

وللشاعر السوري (محمد العدناني) ملحمة شعرية سمّاها (ملحمة الأمومة).

وطلع الدكتور المحاسني برأي في سبيل النهضة بالملحمة العربية، وذلك بأن تكون هناك هيئة أدبية أو حكومية تؤلف شتات ملحمتنا العربية فتجمع شعر الحماسة والبطولة الذي يضمُّه تراثنا على اختلاف العصور بالإضافة إلى ضرورة العناية بالملحمة الحديثة التي تصوّر بطولةَ العرب في الدفاع عن حريتهم وديارهم ضد الاستعمار الطويل وخاصة بطولات العرب في فلسطين لدحر العدو الإسرائيلي الغاصب.

وختم المحاسني محاضرته بقوله:

«إنَّ أمتنا العربية التي بذلت الدماء والفداء لجديرٌ بشعرائها الملهَمين أن يهدوا إليها ملحمتها الكبرى».

وقد بلغ عدد قصائد المحاسني من الشعر الملحمي إحدى وعشرين قصيدة (وتجد بعض نماذج منها في الحديث عن ديوانه في الفصل الثاني).

١٣ ـ التبادل الشعري مع أصدقائه من الأدباء:

وهي الأبيات الشعرية الإخوانية كما أطلق عليها الشاعر المصري الأديب (محمد عبد الغني حسن)[١].

يتسع مجال شعر المحاسني في (الإخوانيات) باتساع المناسبات والظروف في تحية أصدقائه من الأدباء والشعراء.

---

(١) الدكتور زكي المحاسني في إخوانياته، محمد عبد الغني حسن.
مقال في كتاب: تحية وذكرى، الدكتور زكي المحاسني بأقلام الذين عرفوه في أدبه ونضاله من أعلام المفكرين والأدباء، دمشق: مط. الآداب والعلوم، ١٩٧٢م، ص٢٨ ـ ٣٦.

ومعظم هذه الأبيات نشر في مجلة (الأديب) اللبنانية التي كان يصدرها (ألبير أديب)، ومن هذه الأشعار ننتخب هذه الأبيات:

قال المحاسني مهدياً الأبيات التالية للأديب الباحث العراقي الدكتور (صفاء خلوصي) رحمه الله (فقد توفي عام ١٩٩٥م) في إنكلترة حيث أقام مدة مع أسرته، وكانت المناسبة إهداء صفاء خلوصي للمحاسني صورة فوتوغرافية له:

يا مهدياً لي صورةً للقائي ... إنّي وجدتُ بها مثالَ صفائي
لولا الخيالُ وَرَسْمُ أحبابٍ لنا ... لرمى البُعادُ ودادَنا بجفاءِ
خلفَ الجفونِ جمعتُ أشكالَ الرؤى ... في صورةِ الأحبابِ والخُلَطاءِ
سجَّلتُهم في القلبِ في (أَلْبُومِهِ) ... يَفْتَرُّ عن وجدٍ وعن سَرّاءِ

وقال بمناسبة صدور ديوان صديقه الشاعر (عبد الله يوركي حلاق) صاحب مجلة (الضاد) في حلب بسورية، والمعنون (حصاد الذكريات):

يا حصادَ الذِّكرياتِ ... أنتَ لَمْلَمْتَ حياتي
إيهِ عَبْدَ الله يُوركي ... أيَا زَيْنَ الرُّواةِ
عِشْتَ تَرْعَى (الضَّادَ) في الـ ... ـعزِّ لدى العُرْبِ الأُباةِ

وقال هذه الأبيات الإخوانية لصاحب مجلة (الأديب) ولمجلته الأدبية الثقافية:

قُلْ للأديبِ وعينُ اللهِ ترعاهُ ... أَقَمْتَهُ أدباً يَعْلُو به الجاهُ
فأنتَ جامعةٌ تسعى روائعُها ... من كلِّ قُطْرٍ له في العُرْبِ مغناهُ
إنْ قيلَ (مدرسةٌ للفكرِ) كنتُ بها ... مريدُها، وبها لفظي ومعناهُ
لها التهانيَ في عمرٍ تكونُ بهِ ... كعهدِها عالماً فاقتْ مزاياهُ
كنابغٍ من بني ذُبيانَ قلتَ لها ... وعدُ لبنانَ قد زادتْ عطاياهُ
أليرُ؟ أنتَ كشمسٍ غيرِ حاجبةٍ ... لدى السطوعِ كنجمٍ شَعَّ مسراهُ
لعشتَ في دولةِ الأفكارِ مشرقها ... تزدادُ عمراً بمجدٍ طاب ريَّاهُ

١٤ ـ رسائله إلى أصدقائه:

عبّر الأديب اللبناني (جان كميد)، وكان صديقاً للدكتور زكي المحاسني عن إعجابه بناحية متميزة من أدب المحاسني وهي أدب الرسائل فقال:

«إن اللون الذي بودّي أن أتحدث عنه من ألوان أدب المحاسني، والذي يعدّ من أدبه الرفيع هو الترسل، فقد سما المحاسني بأدب الرسائل إلى قمة ربما لا يضارعه في بلوغها غير (الريحاني) ومن إليه من كبار المترسّلين، وإنني لأعتبر نفسي من أكثر أصدقائه علماً بهذه الناحية من نواحي أدبه نظراً للمجموعة الكبيرة من الرسائل التي أملكها منه، وهي حصيلة ستة عشر عاماً من العلاقة والصداقة».

ولقد كانت رسائله مع الأدباء والشعراء تضمُّ شعراً أيضاً، فله على سبيل المثال أبيات من الشعر تبادلها مع الأديب الشاعر (هلال ناجي) بمناسبة إهداء كتبهما إلى بعضهما بعضاً[1].

كذلك أهدى المحاسني إلى الشاعر حافظ جميل من العراق قصيدة بعنوان (الشعر إكليل لحافظ)، نشرت في مجلة (الورود) في الشهر الذي توفي فيه المحاسني وهو شهر آذار سنة ١٩٧١م، وقد توفي بعدها بعام، منها هذه الأبيات:

لا تَدَعْنِي في الهوى أنسى الحبيبا	بعدَ أنْ أوقدَ في قلبي اللَّهيبا
رفَّتِ الروحُ على شطآنِهِ	وهَفَتْ (دجلةُ) تسمو فيه طِيبا
يا مكينَ الشِّعرِ فضّاحَ القوافي	من لدنْ عَبْقَرَ أبدعتَ العَجِيبا

١٥ ـ الجانب الديني والوجداني في حياته:

تميّز المحاسني بإيمانه العميق بالله عزَّ وجلّ، وكانت أصفى وأجمل أيام

---

(١) بين شاعرين زكي المحاسني، هلال ناجي.
مجلة الورود، لبنان، ج(٢)، تشرين الأول، ١٩٧١م، ص١٤.

حياته هي تلك التي قضّاها في (مكة المكرمة) سنة (١٣٨٥هـ) في تلك الديار العظيمة التي شهدت مولد الرسول ﷺ وبداية الإسلام، وكانت أحاديث المحاسني في الصحف السعودية في ذلك الحين تعبّر عن سعادته بهذه الإقامة في الديار الطاهرة، ففي حديثه مع مندوب جريدة (عكاظ ع ١٥/ ١٢/ ١٣٨٥هـ ص٢)، ارتجل الأبيات التالية التي تحدث فيها عن ذلك فقال:

نزلنا ضيوفاً على أكرمٍ نحجُّ وندعو إلـهَ البَشَرْ
ونطمعُ في عَفْوِ ربٍّ رحيمٍ لعلَّ مآثمَنا تُغْتفرْ
وَمِنْ عرفاتٍ بلغنَا المُنَى وهل بعدَ ذلك يُجْنَى الثَّمرْ؟

وقد عاش المحاسني حوالي السنة في مكة المكرمة، حيث كان يعمل في مجال التدريس وإلقاء المحاضرات في كلية اللغة العربية بمكة المكرمة، وفي هذه الرحاب المقدسة عاش أياماً جميلة من عمره وسط الديار التي شهدت مولد الرسالة الإلـهية السماوية التي أُنزلت على النبي العربي (محمد) ﷺ.

وكان المحاسني يزمع أو يأمل تأليف كتاب استوحاه من زيارته لتلك الديار، بعنوان (في دارة الوحي والإلهام)، إلا أن المرض لم يمهله لتأليف هذا الكتاب، فقد أخذت صحته تتدهور منذ عودته من تلك الديار.

وكان يعتزُّ بإيمانه بالإسلام الذي يوحد العرب والمسلمين في الفكر والدين، وفي مظاهر العبادة وخاصة الحج.

والمحاسني المؤمن، يعبّر في كتابه (الأدب الديني) عن الحياة الأدبية بكل اتجاهاتها ومناحيها على أساس ديني يتمثل في (القرآن الكريم) و(الحديث الشريف)، وهو يدعو الناس إلى الالتزام بالقيم الإسلامية التي أخرجت البشرية التائهة من ظلام الجهالة إلى نور الهدى والرشاد.

فالمحاسني يرى أن الأدب لا يمكن أن يزدهر إلا في ظلال الدين، فيقول: «لا يعيش الأدب منضوح البيان بالسحر الحلال وفصل الخطاب إلا في

حمى الدين، ولقد عرفت الأمم القدامى في حياة الشعر والفن بتراتيل العبادة في طقوس الدين».

١٦ ـ المحاسني الناثر:

بدأ د. المحاسني بكتابة المقالة منذ أن كان مدرساً للغة العربية وآدابها في المدرسة التجهيزية الأولى بدمشق، ثم فيما بعد عندما كان يدرِّس في كلية الآداب بالجامعة السورية، وقد فازت إحدى مقالاته القديمة تلك في مسابقة نظمتها مجلة (الحديث) السورية سنة (١٩٣٦م)، وقد تبرع بالجائزة للفائزين الأستاذ (محمد سعيد الزعيم)، واشترك فيها كثيرون، لكنّ لجنة التحكيم اختارت الفائزيْنِ ومنهما الدكتور المحاسني الذي فاز بالجائزة الأولى عن مقاله: (من هو أكبر أديب عربي معاصر).

أما قصة أو حكاية هذا المقال فهي طريفة، فقد كان المحاسني معجباً بأدب عميد الأدب العربي الدكتور (طه حسين)، وكان يكتب له الرسائل تلو الرسائل دون أن يتلقى جواباً، رغم أنه كان يقيد رسائله إليه بالبريد المسجل المضمون.

وفي ذلك الحين أنشأت مجلة (الحديث) الحلبية مسابقة كبرى موضوعها: (من هو أديب العصر الأفضل في دنيا العرب المحدثين)؟.

فوجدها سانحة لكتابة مقال في تفضيل الدكتور طه حسين على أدباء العصر جميعاً، وفاز مقاله الذي تضمن دراسة لحياة طه حسين وآثاره التي كانت قد ظهرت يومذاك، وكان ثاني الفائزين كاتب فضَّل (العقاد).

ويقول الدكتور المحاسني حول الجائزة:

«كانت الجائزة ثمينة تجيء في خمس ليرات ذهبية، فلم تصل إليَّ، وضرب الدهر بيني وبين الجائزة، حتى لقيني صاحبها الذي رصدها وهو الاقتصادي المشهور (سعيد الزعيم) رحمه الله، فجعل يبارك فوزي، ويسبغ التهنئة عليّ بجائزته وقد أعلمني مقدارها، فدهشت وأدهشته حين قلت له: لم أتسلم أية

جائزة!..»[1].

على أن المحاسني لم يرسل لطه حسين خبر فوزه بالجائزة، لكنه فوجئ في أحد الأيام أثناء إحدى محاضراته للطلاب بالمدير يرسل إليه ليعلمه بوصول رسالة من د. طه حسين.

وفتح الرسالة فوجدها بخط كاتب د. طه حسين، وفيها ثناء كبير على مقاله، وكان مع الرسالة أول كتاب أهداه إليه طه حسين وهو (الأيام)، وتتالت هداياه من الكتب، حتى بُعث المحاسني إلى مصر للحصول على دكتوراه الدولة في الأدب العربي، وسعى إلى الدكتور طه حسين في القاهرة فشجّعه على المضي في إعداد أطروحة الدكتوراه بعنوان (شعر الحرب في أدب العرب)، وكانت بينهما زيارات كثيرة ولقاءات في السفارات حيث كان المحاسني يدعى إليها عندما عمل ملحقاً ثقافياً إبان الخمسينيات من القرن العشرين.

وفيما يلي قسم من مقالة (من هو أكبر أديب عربي معاصر؟)[2] التي تصدرتها الأبيات التالية:

أوّاه مِنْ عُمْقِه في العِلْمِ أوّاه	كالبَحْرِ أحسبُ أنْ لا ماءَ إلاّهُ
قالوا ويسرعُ في ممشاهُ متكئاً	على الحِجَا وتشعُّ النورَ عيناهُ
صنو التنوخيِّ لكنْ ليسَ مُرتهناً	بحبس بيتٍ ولا قد فاتَ دنياهُ
هو الأديبُ الذي ضمَّتْ ثقافتُه	فناً تبدَّى على أزهى سجاياهُ

لعلَّ هذا الشعر يحاول أن يصور زعيم الأدب العربي في عصرنا ويبدو لي أن أعرِّف متن السؤال حتى أستطيع الجري على غرار الجواب.

---

(١) مطارحات مع الأدباء المعاصرين، عميد أدب القرن العشرين الدكتور طه حسين، زكي المحاسني. ـ مجلة الورود.

(٢) نشر المقال في مجلة الحديث، حلب، ع(٨)، آب، ١٩٣٦م، السنة العاشرة، ص٥٧٨ ـ ٥٨٤.

إن كلمة أديب في معناها العصري وصفٌ للعالم بالأدب ونقده والكاتب في أموره.

وأموره تتناول دراسات المؤلفين من أصحاب نثر وشعر وما إليهما من أغراض الكلام، بل تتناول تاريخ الآداب وحياة أصحابها وآثارهم فيها من قديم وحديث.

أما الكتّاب والمنشئون والشعراء فلا يعمّهم على الشمول لفظ الأديب، فإذا صحّ هذا الشكل من فهم السؤال كان المسير في الجواب على ضوء بيّن وطراز صحيح.

ولمعرفة هذا الأديب ننظر في أصحاب الأدب القديم، وما كان لهم من سموق في القول وضروب في الكتابة وميزة في الفن حتى نعرف زعامة صاحب الأدب الحديث.

أجد الجاحظ وأبا عبيدة وأبا الفرج وسهل بن هارون أصحاب الآداب القديمة في المئة الثانية، وكان أشدهم زعامة لها الجاحظ. فالجاحظ أديب بالمعنى الذي يجب أن يعرف بزمانه، فقد ظهرت صورة أدب عصره على كتاباته، وتجلّت إلى ذلك حالات التفكير المعاصر عنده، وكان أدبه خطوة كبرى في النقد والتحليل والمقابلة. هو أول أديب في تاريخ الأدب القديم عرّف فنون الكلام وأساليب الإبداع في موضوعاته. لقد لخص الجاحظ بيان عصره وأفكاره الأدبية وجاء بطُرز لا عهد لأدب العرب بها.

دالت دولة الآداب القديمة جاهليها وأمويها وعباسيها، وظل الأدب خاملاً ضعيفاً ركيكاً حتى طلعت شمس العصر الحاضر، وانبلجت من مصر، فإذا الآداب تنتعش، ثم تتحرك فتنبعث من رمام طرازها الرث البالي الذي كان لها عصر انحطاطها، وهذه سنة الترقي فالانتعاش يكون في أكثر أحواله بادئاً من الحالة التي صار إليها الانحطاط، وإذا نحن في أيامنا هذه لنا أوائل أدب حديث بالمعنى الجديد العصري.

منذ أغمدت الحرب العالمية سلاحها (١٩١٨م) بدأت هذه النهضة بمعناها المعاصر، وطلع فجرُ العالم العربي، فسطع في صباحه ضوءٌ من ناحية مصر، هذا الضوء حمل مصباحَه الدكتور (طه حسين) منذ عاد من أوروبة بعد الحرب، وكان سلخَ أعوامها في باريس، يدرس الآداب الفرنسية، وقد أعد قبل سفره عدة الآداب القديمة، وروى الحديث والفقه وأخذ النحو واللغة وحفظ الشواهد الأدبية في الأزهر وارتوى منها كلها، ثم عاد من أوروبة، فبدأ يفتح عصراً أدبياً للعربية جديداً للجيل الجديد، وأول ما قام به قبل ذهابه لأوروبة أنه نشر كتاب (ذكرى أبي العلاء) وهو أول بحث علمي سار مؤلفه فيه على نهج منظم. ثم لمَّا آذنت عودته من تلك الديار كتب كتاب الدكتوراه (١٩١٧م) التي نالها من باريس عن فلسفة (ابن خلدون) الاجتماعية[١]، وهذه الرسالة كذلك أول بحث كتب عن الفيلسوف الاجتماعي (ابن خلدون) محَّص فيه مؤلفه نظريات هذا العظيم. لقد نشر الأستاذ طه هذا الكتاب أول أمره بالفرنسية فدرس أفكار مؤرخ العرب، فكان مِنْ خيرِ من عرّف العالم الغربي حقيقة الثقافة العربية القديمة.

لماذا أعدُّ الدكتور طه حسين أكبر أديب معاصر؟

لأنه فتح فتحاً جديداً في حياتنا الأدبية الحديثة لم يكن قبل طه حسين أحد في عالم الأدب العربي يجاهر بإصلاح أساليب الدراسة القديمة[٢]. إنه أول من فتح الباب على الحياة الأدبية الناضرة بمعناها الحق الحديث.

١٧ ـ وفاة المحاسني:

ما أن علم الأدباء والشعراء ورجال العلم والفكر بوفاة المحاسني، التي

---

(١) وقد عرَّبه الأستاذ محمد عبد الله عنان.

(٢) دعوى الإصلاح هذه فيها نظر. انظر فصل الفساد في حياتنا الأدبية في كتاب (المتنبي) للأستاذ محمود محمد شاكر رحمه الله تعالى. (الناشر)

كانت في يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر آذار سنة (١٩٧٢م)، وهو لم يتجاوز الثالثة والستين من عمره، حتى سارعوا إلى التعبير عن حزنهم لفقد علم من أعلام الأدب المعاصر في الوطن العربي.

وعبَّرت المستشرقة الألمانية المعاصرة (آن ماري شيمل) أستاذة الدراسات العربية والإسلامية في جامعة (بون) عن أسفها لفقده، وقد عرفت المحاسني من خلال كتاباته التي نشرت في مجلة (فكر وفن) وكانت ترأس تحريرها، فأرسلت برقية تعزية منها العبارات التالية:

«هناك أصدقاء لم نلتق بهم، ومع ذلك فهم أقرب إلى تفكيرنا وشعورنا من أولئك الذين عرفناهم والتقينا بهم يوماً بعد يوم.

وكان الدكتور زكي المحاسني من هؤلاء الأصدقاء الذين عرفناهم في آثارهم دون التقاء.

وما أشدّ الحزن عليه حين وصلت إلينا أخبار وفاته المفاجئة مما هزنا وملأ نفوسنا حزناً، فقد أحسسنا بأننا فقدنا صديقاً عظيماً بعلمه وأخلاقه، وأن عالم الأدب والبحث والتأليف قد فقد بفقده أحد البارزين من أعلامه وأحبهم إلى القلوب وأنفعهم للناس».

١٨ ـ مراثيه:

وعبَّر آخرون من خلال قصائد شعرية عن أسفهم لغياب المحاسني، تغمده الله برحمته، ومنهم على سبيل المثال الشاعر الأستاذ رشاد علي أديب من سورية، ومن قصيدته في رثاء المحاسني هذه الأبيات:

قـدرٌ يبعـثُ الأسـى والشجـونـا	حيـن يـزجـي إلـى النفـوس المَنـونـا
سنـةُ الله مـذ خلـق البـرايـا	ودبيـب الحيـاة فـي العـالمينـا
يـالخطـب هـزّ القلـوب وأدمـا	هـا وحـز الكُبـودَ حـزاً ثخينـا
إذ قَضَـى نحبَـهُ العليـم: زكـيٌّ	مـن شـأى فـي نبـوغـه النـابغينـا

ذو النهـى والعلـى وكـل خصـالٍ وفعـالٍ حميـدة لـن تحينـا
قـد تحلـى بـالحلـم والعلـم والفَهْـ ـم وحـذق الآداب حـذقـاً رصينـا
لـم يقصـر سعيـاً ولـم يـألُ جهـداً بـاتخـاذ الفصحـى دليـلاً أمينـا
كنـت كنـزاً للشعـر والنثـر يهمـي جـوهـراً مـن ذخيـره مكنـونـا
ولـك السبـق والتصـانيـف والتحـ ـقيـق فـاخلـد ذكـراً مـع السـابقينـا

كما رثاه الشاعر (حسين أحمد كمونة) بقصيدة بعنوان: (في رثاء المحاسني)[1]، جاء فيها:

ودخلـتُ قاعـةَ مجلسِـهْ
ونظرتُ، صورةَ صاحبي
وكذا المكانُ.. ومجلسٌ
صورٌ من الماضي القريب
صـور من الماضي البعيد
صورٌ تراءت عندها في خاطري
ملكـتْ علـيَّ مشـاعـري
جعلتني، أزهـدُ في الحياة
وأغوصُ.. في معنى الوفاة
بعد الحيـاة..
جعلتني أجلسُ صامتاً
في موقف جِدٌّ عصيبْ
وأنـا أريـد..
في أن أقولَ.. بما يفيدْ
في فقـدِ صَرْحٍ من أدبْ

(١) انظر القصيدة كاملة في كتاب (تحية وذكرى)، ص١٤١ـ١٤٤.

عـاشَ الحيـاة بـأسـرها
من أجلِ فِكْرٍ للعربْ

* * *

كمْ كانتِ الأحلامُ تدفعني إليه
كم كانت الآمالُ تزرعني لديه
لأعيشَ عمراً ثانياً
والعمرُ دوماً فانياً
إلاّ الذي يحياه في بحر الأدبْ
وصديقيَ المفضالُ دنيا من أدبْ
دنيـاه.. دنيـا لا تزالْ
تحيا، تعيش الانفعالْ
بقضايـا، أمّـةٍ يعـربِ
دنياه، دنيا من ملاحمَ، من نضالْ

كما رثاه الشاعر العراقي (عبد الخالق فريد) بقصيدة عنوانها: (إلى روح الفقيد الغالي):

في يـومِ موتـكَ أيُّ صرحٍ قدْ هَوَى	فهـوتْ عليـهِ صـريعـةٌ أحـلامـي
لمـا أتـانـي النعـيُ أذهلنـي الأسـى	وغـرقـتُ فـي دنيـا مـن الإظـلام
ولثمـتُ طيفَـك فـاعتـرتنـي رِعـدةٌ	وطغى من الأعماق فَيْضُ هيامي
يـامـن رعـى شعـري وزكّـى غـرسَـه	وسمـا بـه لعـوالـم الإلهـام
أكـذا الحيـاة تمـرُّ مـرَّ سحـابـةٍ	أو مثـل رؤيـا حـالـمٍ بمنـام
خلّفتنـي وحـدي يُحطِّمُنـي النـوى	وتُميـتُ روحـيَ ثـورةُ الآلام
فـإذا بقلبـي وهـو نبـعُ تـوهـجٍ	يُمسـي بفقـدِ رؤاك محـضُ رُكـام
إيـهٍ، أخـي وحكمـةُ الأيـام أنْ	تنتهـي آمـالُنـا بحطـام
أن لا تـدومَ هنـاءةٌ ومـودَّةٌ	لمعـزَزيـن تعـاقـدا بسـلام

يــــاراحــــلاً عنــــي وإنــــي ههنــــا	أقتـاتُ مـن شـوقـي ومـن أوهـامـي
أبكيـك بـالـدمـع الهَتـونِ وخـافـق	حــرّان مــن هــول المصيبــة دامِ
أ(زكــي) يــالحنــاً علــى قيثـارتــي	فــذاً يضــوعُ بــأروع الأنغــام
مــا زال طيفُـك وهــو خيــرُ تعلّــةٍ	ليــراعتــي عَــوْنــاً علــى أيــامــي
ويظلُّ ذكرُك في الحياة على المدى	يـوري الشجـا وينيـر فـي إلهـامـي

١٩ ـ تقدير الدولة للمحاسني:

بعد وفاة المحاسني، وتقديراً لفضله على الجيل كأديب ومربي، قررت محافظة دمشق تسمية الساحة المجاورة لجامع الإيمان في حي المزرعة بمدينة دمشق باسم الدكتور زكي المحاسني.

٢٠ ـ قائمة ببليوغرافية بالكتب والدراسات عن الدكتور المحاسني:

أولاً: مؤلفات عنه:

١ ـ الكتب:

أ ـ الدكتور زكي المحاسني، حياته وأدبه.

ـ رسالة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، إعداد الباحث خير الدين كم ألماظ، بإشراف د. حسن جاد، عميد كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، قسم الأدب والنقد، القاهرة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

ب ـ تحية وذكرى، الدكتور زكي المحاسني بأقلام الذين عرفوه في أدبه ونضاله من أعلام المفكرين والأدباء، دمشق: مط. الآداب والعلوم، ١٩٧٣م.

٢ ـ الدراسات والبحوث ضمن الكتب:

ـ أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، عباس محمود العقاد، ط٢، دار المعارف بمصر (بحث بعنوان: شعر الحرب في أدب العرب، ص١٤١ ـ ١٥٤).

ـ وديع فلسطين يتحدّث عن أعلام عصره، ط دار القلم بدمشق ٢٠٠٣ بعنوان: الدكتور زكي المحاسني: ١/ ٢٥٥ ـ ٢٦١.

ـ مباحث في الأدب العربي المعاصر، وحيد الدين بهاء الدين، العراق، ١٩٧٥م، (بحث بعنوان (زكي المحاسني نابغة من دمشق)، ص٤٦ ـ ٥٨).

ـ د. زكي المحاسني، العالم والأديب والشاعر (بحث في كتاب: عبقريات من بلادي، عبد الغني العطري، دمشق).

٣ ـ مقالات نشرت في مجلات أو صحف:

ـ دراسة تطبيقية في الشعر، الشاعر زكي المحاسني، تأليف جان كميد، مجلة (الورود)، لبنان، ع(كانون الأول)، ١٩٥٩م، ص٣.

ـ مع الدكتور زكي المحاسني في دراستين تاريخيتين من تأليفه، عبد الفتاح إبراهيم، مجلة (الرسالة)، لبنان، ع(٥)، ١٩٥٨م، ص٢٩.

ـ كتاب الشهر، إبراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب حياته وشعره، تأليف الدكتور زكي المحاسني، جان كميد، مجلة (الرسالة)، ع(٧)، ١٩٥٦م، ص٢٨.

ـ إلى أديب سورية الكبير الدكتور زكي المحاسني، مصطفى خالدي، مجلة (البلاغ)، بيروت، ع(١٨ حزيران)، ١٩٤٧م.

ـ شاعرية الدكتور زكي المحاسني، أنور الجندي، جريدة (الندوة)، المملكة العربية السعودية، ع(١٠ شعبان سنة ١٣٩٧هـ).

ـ بين الشاعر المحاسني وعارفيه، حسان الكاتب، مجلة (العرفان)، لبنان، ص٤٢٥ ـ ٤٢٨، ٤٩٨ ـ ٥٠١.

ـ الدكتور زكي المحاسني، فقيد الأدب، حسان الكاتب، مجلة (الأديب)، ع(مايو)، ١٩٧٢م.

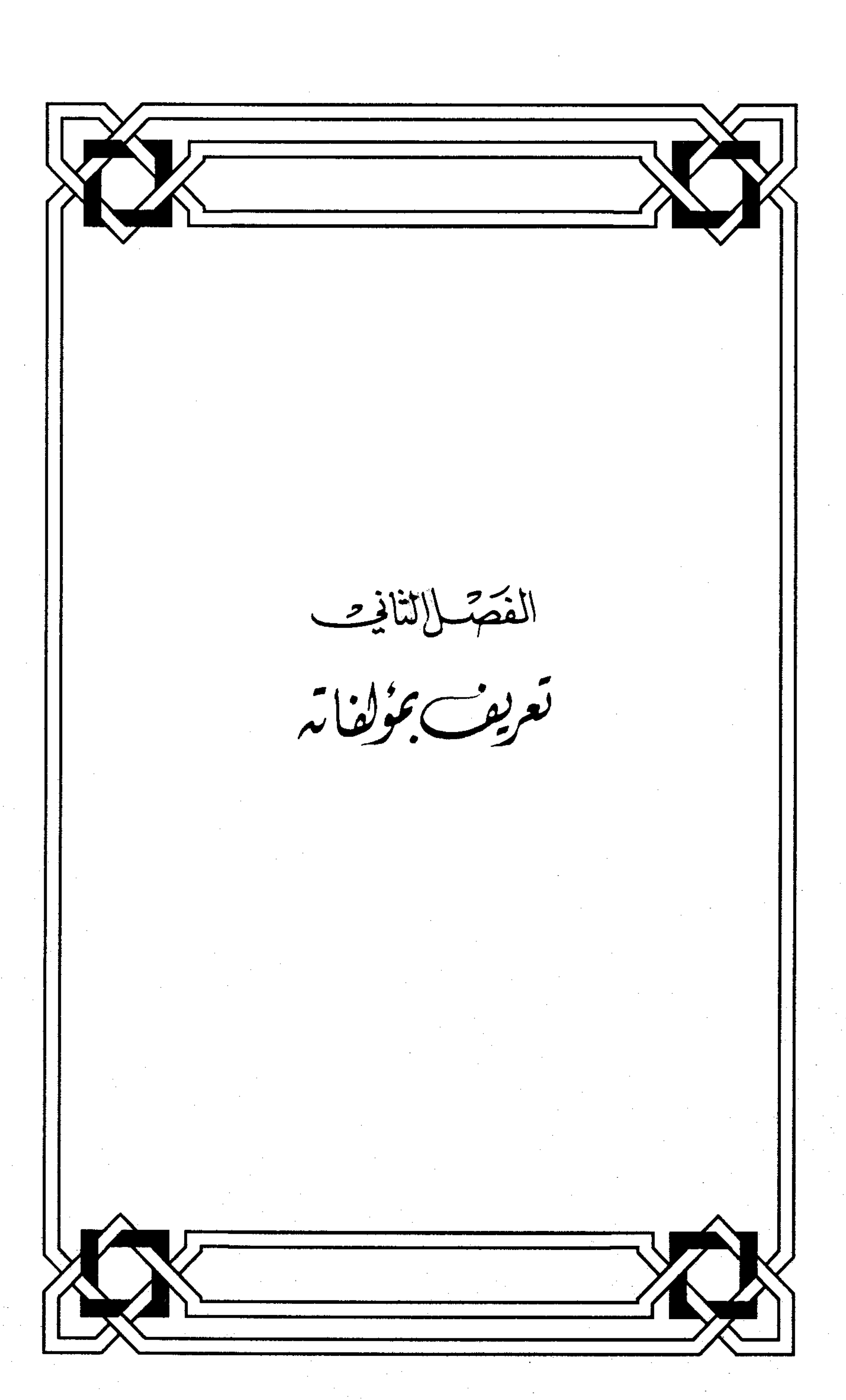
ـ زكي المحاسني في ذكراه العاشرة، عيسى فتوح، مجلة (الأديب)، ع(يناير ـ فبراير)، ١٩٨٣م.

ـ الدكتور زكي المحاسني ناقداً وأديباً، عيسى فتوح، مجلة (اليرموك)، الأردن، سنة ١٩٩٤م.

ـ أبو نواس لزكي المحاسني، بديع شبلي، مجلة (الورود)، لبنان، ع(تشرين الأول)، ج(٢)، ١٩٧١م.

* * *





الفصل الثاني

تعريف بمؤلفاته



المبحث الأول

قائمة ببليوغرافية بأعمال الدكتور زكي المحاسني

أولاً ـ الكتب مرتبة حسب سنوات النشر:

١ ـ **أبو العلاء ناقد المجتمع**، رسالة ماجستير في الأدب العربي من جامعة القاهرة، ط١ القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٥م، ط٢ بيروت: دار المعارف، ١٩٦٤م.

٢ ـ **شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة**، رسالة دكتوراه من الجامعة المصرية (دكتوراه دولة).

القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٧م، ط٢ القاهرة: دار المعارف: ١٩٦٣م.

٣ ـ **النواسي شاعر من عبقر**، دراسة تحليلية لشعر أبي نواس وحياته.

المكتبة العمومية في دمشق، ط٢ دار الأنوار، بيروت، ١٩٧٠م.

٤ ـ **ديوان (الشريف العقيلي)** تعليق وتحقيق لمخطوط.

مصر: دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي)، ١٩٦٥م.

٥ ـ **المتنبي**.

ط١ القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٦م، طبعات أخرى ١٩٦٨، ١٩٧٠م.

٦ ـ **إبراهيم طوقان شاعر فلسطين**.

ط١ القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٩م، ط٢: ١٩٦٢م.

٧ ـ **دراسات في تاريخ النهضة العربية المعاصرة**، بالاشتراك مع شفيق غربال وأحمد عزت عبد الكريم وبديع شريف.

القاهرة: الجامعة العربية، ١٩٥٨م.

٨ ـ **نظرات في أدبنا المعاصر**.

القاهرة: وزارة الثقافة، ١٩٦٢م.

٩ ـ **أحمد أمين**.

محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة.

القاهرة، ١٩٦٣م.

١٠ ـ **عبد الوهاب عزام**.

محاضرات في معهد البحوث والدراسات العربية.

القاهرة، ١٩٦٨م.

١١ ـ **الأدب الديني**.

ط١ القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٧٠م، ط٢ بيروت: دار البلاغ، ١٩٨٨م.

١٢ ـ **أساطير ملهمة**.

دار المعارف بمصر، ١٩٧١م.

١٣ ـ **الشاب الظريف**.

دمشق: المكتبة العباسية، ١٩٧٣م.

١٤ ـ **عباقرة الأدب عند العرب**. دمشق: دار الأهالي، ١٩٩٥

١٥ ـ **أقاصيص العرب**، القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٠م.

١٦ـ الأدب العربي المعاصر، ١٩٦٠م. كتاب مدرسي.

١٧ـ في التراجم والنقد، ١٩٦٠م. كتاب مدرسي.

١٨ـ قراءات أدبية مدرسية وتحليلية، ١٩٦٠م. كتاب مدرسي.

ثانياً ـ كتب مُعدَّة للطبع:

١ ـ فقه اللغة والمقارن.

٢ ـ ديوان شعره.

٣ـ دراسات في اللغة العربية والمعاجم.

٤ ـ نشيد الإنشاد.

ثالثاً ـ المقالات: (بعضها نقد وتعريف للكتب):

١ ـ ترجمة لقصة القيثارة الكبيرة لأنطون تشيخوف.

مجلة الحديث، حلب، سنة ١٩٣١م.

٢ ـ عقوق التلاميذ.

جريدة الصباح، ع(٢٨) كانون الأول سنة ١٩٤٠م.

٣ـ ولي الدين والأمة.

مجلة (الأمالي) ع(١٧)، بيروت، ص١١، ١٩٤٠م.

٤ ـ الحسد والنقد.

جريدة الأحد، بيروت، ع(١٠٢)، ص١، سنة ١٩٤١م.

٥ ـ أبطال الرواية.

مجلة الأديب، بيروت، ع(كانون الثاني)، ص١٦ ـ ١٧، سنة ١٩٤٩م.

٦ ـ ملاحم أندلسية.

مجلة (المجلة)، مصر، ١٩٥٧م، ع(٥).

٧ ـ خطرات في فن الشعر.

مجلة (المجلة)، مصر، ١٩٥٩م، ع(يوليو).

٨ ـ ملحمة البامبا.

مجلة (المجلة)، مصر، ١٩٥٨م، ع(فبراير).

٩ ـ الطريقة في تدريس الأدب العربي.

مجلة (المعلم العربي)، دمشق، ع(تشرين الثاني ـ كانون الأول)، ١٩٥٧م.

١٠ ـ طابع الأدب السوري الجديد.

مجلة (الرسالة)، لبنان، ع(٩/ ١٠/ ١٩٥٧م).

١١ ـ طاهر الجزائري وكردعلي.

مجلة (المعرفة)، دمشق، ع(٩).

١٢ ـ محمد كردعلي.

مجلة (الكتاب)، مصر، سنة ١٩٥٣م، ص٧٧ ـ ٧٩، أعيد نشره في مجلة (المجمع العلمي العربي بدمشق)، مج٢٨، ص٣١٩.

١٣ ـ مدارس الأدب ومذاهبه.

مجلة (الأديب)، ع(سبتمبر)، ١٩٥٠م، ص١٧.

١٤ ـ خواطر بين السلوك والتصنيف.

مجلة (الأديب)، ع(مايو)، ١٩٥١م، ص٥١.

١٥ ـ أدب الرسائل.

مجلة (الأديب)، ع(يونيو)، ١٩٥٧م، ص١٢.

١٦ ـ شاعر أفاعي الفردوس.

مجلة (الأديب)، ع(٥)، ١٩٥٦م، ص١٧.

١٧ ـ الريحاني على تهاويل إشبيلية .
مجلة (الأديب)، ع(٨، ٩)، ١٩٥٦م، ص٢٤ .

١٨ ـ مطران بين التجديد والحب .
مجلة (الأديب)، ع(٥)، ١٩٥٧م، ص٩ .

١٩ ـ طابع الأدب السوري الجديد .
ع(٩، ١٠)، ص٨، ١٩٥٧م .

٢٠ ـ فن الحوار في الأدب والقصة .
مجلة (قافلة الزيت)، ع(محرم)، سنة ١٣٨٨هـ، ص١٣ .

٢١ ـ سوانح وذكريات، الجاحظ الثاني .

٢٢ ـ مطارحات مع الأدباء المعاصرين، عميد أدب القرن العشرين الدكتور طه حسين .
مجلة (الورود) ص٧٥ ـ ٧٦ .

٢٣ ـ عبد الله كنون شاعراً بديوانه (لوحات شعرية) .
مجلة (الورود)، ص٦٥ ـ ٦٦ .

٢٤ ـ التطور والتجديد في الشعر الأموي، تأليف شوقي ضيف .
مجلة (الكتاب)، ج(٧)، مج (١١)، يوليو، سنة ١٩٥٢م، ص٨٦٨ ـ ٨٧٠ .

٢٥ ـ تهذيب الصحاح، تأليف الزنجاني .
مجلة (الكتاب)، مج (١٢)، ج(٤)، أبريل، سنة ١٩٥٣م، ص٥٠٢ ـ ٥٠٤ .

٢٦ ـ ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني .
مجلة (الكتاب)، ج(٧)، مج (١١)، يوليو، ١٩٥٢م، ص٧٦٥ ـ ٧٦٨ .

٢٧ ـ المغـرب الأقصى، رحلـة من المنطقـة الإسـبانية، تـأليف أمين الريحاني.

مجلة (الكتاب) ج(١٠)، مج (١١)، ديسمبر، سنة ١٩٥٢م، ص١٢٤٩ ـ ١٢٥٤.

٢٨ ـ عداوة الفكر.

مجلة (الرسالة)، ع(٣)، سنة ١٩٥٧م، ص٢.

٢٩ ـ مطران بين التجديد والحب.

مجلة (الرسالة)، ع(٤)، سنة ١٩٥٧م، ص٩.

٣٠ـ أديب وفارس.

ع(٤)، سنة ١٩٥٨م، ص٢.

٣١ ـ أسرار بلادي.

مجلة (الأديب)، ع(آب)، ١٩٤٢م، ص٣٩.

٣٢ ـ الليالي الشامية.

مجلة (الأديب)، ع(كانون الثاني)، ١٩٤٣م، ص٢٧.

٣٣ ـ في أغلال الذهب.

مجلة (الأديب)، ع(آذار)، ١٩٤٣م، ص٣١.

٣٤ ـ طه حسين بك.

مجلة (الأديب)، ع(فبراير)، ١٩٥٠م، ص٦٦.

٣٥ ـ العناية بالشعر المعاصر.

مجلة (الأديب)، ع(يناير)، سنة ١٩٥١م، ص٢٥.

٣٦ ـ بداية ونهاية.

مجلة (الأديب)، ع(أكتوبر)، سنة ١٩٥١م، ص٥٠.

٣٧ ـ أدب الملحمة والملحمة العربية.

مجلة (الرسالة)، مصر، ع(١٠٨١)، ١٩٦٤م، ص٧.

٣٨ ـ شخصية أدبية، أبو عمرو بن العلاء.

جريدة (الدعوة)، المملكة العربية السعودية، ع(٣٢٧)، ١٣٩١هـ.

٣٩ ـ هل خير للعالم العربي أن يتجه إلى العلم أو إلى الأدب؟

مجلة (دعوة الحق)، المغرب، ع(يناير)، ١٩٦٥م.

٤٠ ـ أدب الطير عند الجاحظ.

مجلة (دعوة الحق)، المغرب، ع(٥)، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

٤١ ـ فاتِك الرومي.

مجلة (دعوة الحق)، المغرب، ع(فبراير)، ١٩٦٥م.

٤٢ ـ أم حكيم.

مجلة (دعوة الحق)، المغرب، ع(٦، ٧)، ١٩٦٥م.

٤٣ ـ أم الشريف الرضي.

مجلة (الأقلام)، بغداد، ع(٥)، ص٨٠ ـ ٨٣.

٤٤ ـ من آثار القرآن في الآداب العالمية.

مجلة (رابطة العالم الإسلامي)، مكة، ع(٨)، ١٩٦٦م، ص٤٥.

٤٥ ـ صداقة الفضيلة.

مجلة (الحديث)، حلب، ع(٨)، ١٩٣٦م، ص٥٧٨ ـ ٥٨٤.

٤٦ ـ المتنبي وبول فاليري في العيد.

جريدة (المدينة المنورة)، ع(٢٩/ ٩/ ١٣٨٥هـ)، ص٥.

٤٧ ـ الأديب الراوية الشيخ المغربي.

مجلة (المعرفة)، دمشق، ع(١١)، ص٦٦.

٤٨ ـ الشعر المسرحي بعد شوقي.

مجلة (المعرفة)، دمشق، ع(١)، ص١٣٢.

٤٩ ـ الشعر الصوفي.

مجلة (الأديب)، بيروت، ع(أغسطس)، سنة ١٩٥٠م، ص٥٧.

٥٠ ـ العناية بالشعر المعاصر.

مجلة (الأديب)، ع(يناير)، ١٩٥١م، ص٢٥.

٥١ ـ مدارس الأدب ومذاهبه.

مجلة (الأديب)، ع(سبتمبر)، ١٩٥٠م، ص١٧.

٥٢ ـ سوانح وذكريات، الجاحظ الثاني.

٥٣ ـ زوجان إسبانيان ومستشرقان عربيان.

مجلة (الأديب)، ع(مارس)، ١٩٧١م، ص٢٢ ـ ٢٣.

* * *

المبحث الثاني :

التعريف بأشهر مؤلفاته

أولاً ـ الكتب المطبوعة مرتبة حسب تاريخ نشرها :

١ ـ أبو العلاء ناقد المجتمع

ط١ : دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٤٥م ،
ط(٢) ، لبنان ، دار المعارف ١٩٦٣م .
ط٣ : حمص : دار المعارف ١٩٨٧م .

نال الدكتور المحاسني بهذا الكتاب الذي صدر عن دار الفكر العربي في القاهرة عام (١٩٤٥م) ودار المعارف في لبنان عام (١٩٦٣م) شهادة الماجستير في الآداب من الجامعة المصرية عام (١٩٤٥م) . ولئن سبقه الكُتَّاب في التصنيف عن هذا الشاعر الفيلسوف فإن واحداً منهم لم يفرد كتاباً مستقلاً للكلام على نقده للمجتمع ، وهل كان أبو العلاء إلا ناقد المجتمع في شعره ونثره؟! .

لقد تحدث عنه الباحثون فيلسوفاً وشاعراً ، ولكنهم لم يتحدثوا عنه ناقداً للملوك والأمراء والأغنياء والفقراء ، ولذلك خصص هذا الكتاب لدراسة أبي العلاء في نقده المجتمع والمرأة والنسل والزواج ، وقد أسهب فيه بالحديث عن أخلاق المرأة وطبيعتها ، وكيف يريدها أن تكون ، وتوقف عند نظرية النسل بين (مالتوس) و(المعري) ، وناقش رأيه في الزواج .

كذلك تحدث عن نقد المعري للرعية والقضاة والحكام والساسة والفقراء والأغنياء ، والمشايخ والقسوس وأهل الأذكار والصوفيين والمنجمين والتنجيم والنحاة واللغويين والفقهاء والقراء والمجادلين والأدباء والخطباء والحكماء والفلاسفة وأرباب النحل والأهواء ، وعن دعوته إلى الاشتراكية والديمقراطية .

وخصص القسم الأخير من الكتاب للكلام على أسلوب التهكم وفن السخرية عند أبي العلاء، ولاسيما في كتابه (رسالة الغفران).

وقد تناول المحاسني الجانب النقدي لدى أبي العلاء المعري، ونجده يحلل آراءه في نواحٍ شتى، ويبرز ملامح هذا الشاعر من خلال نظرته النقدية إلى أمور كثيرة في الحياة.

وقد صدَّر كتابه بمقدمة تحدث فيها عن حبه لأبي العلاء، ورغبته في توضيح الناحية النقدية عنده، فقد وضع الكثير من الدارسين مؤلفات درسوا فيها أبا العلاء كشاعر وفيلسوف، لكنهم لم يبحثوا في نقده للمجتمع، وفي هذا الصدد قال المحاسني:

«وهل كان أبو العلاء إلا ناقد المجتمع في كل شعره وعميم نثره. لقد عرضوه فيلسوفاً وجلُّوه شاعراً ولكن لم يظهروه ناقداً. فلا عليّ إذا جئت أوفّي صاحبي حقه مني، وأنا ابن سورية التي أطلعته، وله على مثلي حق التأليف. وإن ابن الجلدة والأرض لأجدر بمواطن الدرس وأقرب لنبضات الشعور. ولقد قطف الكتاب من روضة أزاهير صاغوها طاقات وباقات قدموها لقرائهم، وأنا على غرارهم أضع بين أيدي قرائي أزاهير أبي العلاء، وأزاهيرُ الفكر لا تفنى.

ولم يدخل المحاسني في موضوعه مباشرة، بل مهد لهذا بتوطئة بحث فيها:

١ ـ فن النقد ومهمة الناقد.

٢ ـ بواعث نقد المجتمع عند المعري.

٣ ـ طبيعة نقده للجماعة.

٤ ـ منابع نقده للمرأة والنسل والزواج.

٥ ـ الفكر الحر عند أبي العلاء.

وفي القسم الأول من الكتاب تحدث د. المحاسني عن المعري كعدو

للمرأة ونقده لها، إذ لم ينظر إليها من الجانب الإيجابي، فلم يقدرها كأم حنون، ولا مرضع حادبة، ولا ربة دار مربية، ولا زوج صالحة، إنما تطلع نحوها بالنظر الشزر، فرآها من الجانب الذي تبدو فيه مثالبها، فأمسك بهذه المثالب واحدة بعد واحدة، وراح ينقدها حتى أتى عليها جميعاً.

وبحث المعري في أخلاق المرأة يبدو جلياً في شعره من خلال انتقاده الشديد لها فهو يقول على سبيل المثال:

إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قلَّ مالُه فليسَ لهُ في وُدِّهِنَّ نَصيبُ
يُرِدْنَ ثَراءَ المالِ حيثُ وَجَدْنَهُ وشرخُ الشبابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيْبُ

وانتقل المحاسني بعد ذلك إلى الحديث عن طبيعة المرأة لدى المعري، فهو لم يكتفِ بنقد أخلاق المرأة، وإنما تعدى ذلك إلى نقد طبيعتها وخلقها وجمالها.

واسترسل في بحثه حول نقد المعري للمرأة، فتحدث عن رأي المعري بالزواج ورأيه بالنسل واستخلص من بحثه ما يلي:

١ ـ إن أبا العلاء بنى نقده للنسل على الأخلاق والمصائب الطبيعية.

٢ ـ أبو العلاء في قضية النسل والسكان ذو نظرية اجتماعية أخلاقية، على أن نقد المعري للزواج كان يرمي إلى نقد المظالم الاجتماعية التي يسببها ضرب ما من ضروب الزواج كزواج المسن بالشابة وما إلى ذلك.

وفي جانب آخر من البحث (في القسم الأول من الكتاب) يناقش المحاسني موضوع (المعري في ميزان فرويد)، وفيه حلّل نفسية المعري وأسباب اعتزاله.

أما القسم الثاني من الكتاب فيتضمن نقد المعري لعلاقات الأفعال، ففي الفصل الأول يبحث في الملوك والرعية في رأي أبي العلاء، والقضاة والحكام في رأيه، ثم رأيه في السياسة، فلم يكن أبا العلاء كما يقول المحاسني بمعزل

عن السياسة والساسة، فقد كانت له صلات وثيقة بشخصية سياسية كبيرة في عصره وهو (أبو القاسم المغربي)، وهو السياسي الذي لزم والدُه العزيزَ صاحب مصر، وكان في الوقت نفسه أديباً يستعين بشعره ونثره على الوصول إلى مآربه السياسية، ومن هنا توثقت صلته بالمعري، وكانت بينهما صداقة ومودة.

وفي الفصل الأول يناقش المحاسني نظرة أبي العلاء إلى طبقات المجتمع، وهي ناحية هامة عُني المحاسني بإبرازها في كتابه، فقد كان من البديهي (على حد قوله) «أن يُعنى أبو العلاء بالفقر والغنى، لأن هذين العاملين خُلقا مع الإنسان، وأحسب سيبقيان ما بقي الملوان. فأبو العلاء وقد تناول بنقده المجتمع في مظاهره وبواطنه كان جديراً أن ينظر إلى الغنى والفقر نظرة متمكن أريب ونقادة عجيب».

أما الفصل الثالث فقد خصص للحديث عن بُناة المجتمع وهادموه، ومن بُناته رجال الدين، وقد كان المعري إسلامي العقيدة في أمر الغيب والعلم به، ولا يعجبه الفأل أو الطِّيَرة فهو يقول:

آليتُ لا يدري بما هُوَ كائنٌ　　مُتَفَائِل في الأمرِ أو مُتطيِّرُ

ويقول أيضاً بأن علم الغيب لله وحده، وأنه لا علم به للمنجمين:

يُحدِّثُنا عَمَّا يكونُ مُنجِّمٌ　　وَلَمْ يَدْرِ إلاَّ اللهُ ما هُوَ كائِنُ

وكان يرى المنجمين خطراً على المجتمع كاللصوص وقطاع الطريق.

وهكذا ينقد أبو العلاء المجتمع ومن فيه.

وفي الفصل الرابع من القسم الثاني يبحث د. المحاسني في هجوم المجتمع على المعري ونقده له، وقد ابتلي بهذه المحنة أرباب العقول وأهل الفكر.

ويقول المحاسني في هذا الصدد:

«لئن هجم المجتمع هذه الهجمة النكراء على أبي العلاء حياً وميتاً، فإن ذلك آية عظمته وسر خلوده.

ولا شكّ في أن كثيراً من فضائل حكيم المعرة قد طُمست فلم تصل إلينا لأنهم لم يذكروها لنا.

وهو على الرغم من كل ذلك قد عرف الناس قدره لدن موته، فقد رثاه أربعة وثمانون شاعراً على قبره، وقرئت على ضريحه مئتا ختمة في أسبوع واحد.

وخلت العصور حتى كان عصرنا فألف جهابذة علمائه عن أبي العلاء كتباً تبقى أمدَ ذكره. كان فيها السبق منذ خمسة وأربعين عاماً للدكتور طه حسين.

وقد هبّ بنو عصرنا في كل أقطار العربية بكل بلد ينطق أصحابه بالضاد فاحتفوا بذكرى ألف عام مرت على مولد أبي العلاء المعري. فأقام له المجمع العلمي العربي بدمشق أياماً مشهودة في مهرجان أغر في (٢٥ أيلول سنة ١٩٤٤م)، دام أياماً، وقد دُعي إليه جلة أهل العقل والأدب وأساطين العلم والبيان وفحول الشعراء من بلاد العرب كلها».

أما الكتاب الثالث فقد بحث فيه نقد المعري لعلاقات الأقوال، وقد شمل البحث نقد المعري للأدب الجاهلي وللأدب في العصور الأخرى، فنقد الأدباء والشعراء.

وفي الفصل الثاني من هذا الكتاب ينتقد المعري النحاة واللغويين، والخطباء والفلاسفة والحكماء.

وقد ختم د. المحاسني كتابه الهام في نقد أبي العلاء للمجتمع بالحديث عن السخرية والتهكم عند المعري.

وقد اتخذ المحاسني في تأليفه لهذا الكتاب مصادر عديدة، منها كتب أبي العلاء نفسه ورسائله، بالإضافة إلى المصادر القديمة من التراث العربي

الأدبي والتـاريخي، واسـتعان أيضاً بمصادر أجنبيـة عن أبي العلاء المعري، وبمصادر في علم النفـس التحليلي وهي خاصـة بفصل (المعـري في ميـزان فرويد)[1].

* * *

(١) من مقال للأديب الناقد عيسى فتوح، نشر في مجلة اليرموك ـ الأردن، سـنة ١٩٩٤، ص٢٩.

٢ ـ شعر الحرب في أدب العرب

ط١ دار الفكر العربي في القاهرة ١٩٤٧م.
ط٢ دار المعارف بمصر ١٩٦١م.

تناول الدكتور المحاسني في هذا الكتاب الذي نال به شهادة الدكتوراه عام (١٩٤٧م) وجاء في (٣٤٧) صفحة، وطبعته دار الفكر العربي في القاهرة عام (١٩٤٧م)، ودار المعارف بمصر (١٩٦١، ١٩٧٠م) البحث الفني في شعر الحرب الذي قالته العرب في عصور مجدها، تصف به بأس أبطالها في المعارك، وفروسيتهم في زحمات القتال، وبلاءهم في أشرف أيامهم وأروعها، وأشد حروبهم وأقساها، حين كان بعضهم يغير على بعض، أو يجتاز حدود بلاده للفتوح في صدر الإسلام، أو يحارب جيوش البيزنطيين من زمن المعتصم، أو عهد سيف الدولة، وقد شمل هذا البحث القيم ثلاثة قرون، أي منذ منتصف القرن الأول للهجرة وحتى منتصف القرن الرابع، وهي المدة التي علا فيها شعر الحماسة.

لم يسبق أحد من الباحثين قديماً أو حديثاً الدكتور المحاسني في دراسة موضوع شعر الحرب بهذه الطريقة العلمية والموضوعية الجادة، وإذا كان بعض المتقدمين قد عالجوه مثل (التبريزي) في شرح (حماسة أبي تمام)، و(ابن جني) في إعرابه لشواهد (الحماسة الطائية) والخالديينِ في كتابهما (الحماسة الخالدية) بقصد التاريخ وتفسير كلمات اللغة، أو للإعراب في مناقشة وجوهه، لا بقصد الدراسة الفنية، فقد كان هؤلاء الباحثون مولعين بجمع الشعر الحماسي جمعاً فحسب، بعد أن تخيروا أحسنه، لا يعنون فيه بتصنيف أو تنسيق ينتمي إلى الفن، وكان دأبهم أن يبرزوا مختاراتهم في مجموعات، لا يربط بين أجزائها رابط، سوى تشابه الموضوع.

كما أنهم عمموا كلمة الحماسة على كل شعر وجدوا فيه قوة وروعة وجزالة وأسراً، ولذا نرى أبا تمام يحشد في كتابيه (الحماسة الكبرى) و(كتاب الوحشيات) المعروف بالحماسة الصغرى ما راقه مما قيل في روائع الشعر منذ العصر الجاهلي إلى زمنه في أبواب يخرج فيها من الحماسة إلى الغزل والوصف والمديح وذم النساء وذكر الشيب وغير ذلك من أبواب الشعر وفنونه ومثل ذلك فعل (الخالديان) اللذان عاشا في بلاط سيف الدولة.

لم ينهج أحد من الأوائل مثلما نهج الدكتور المحاسني في هذا الكتاب، فقد وقف فيه عند كلمة الحماسة بمعناها الحربي، أي الشجاعة والبأس والضرب والطعان، وأفرد كتابه لبحث الحماسة الحربية عند العرب في مظاهرها التاريخية والفنية منذ صدر الإسلام إلى أيام أبي فراس الحمداني، مروراً بشعر الخوارج والشيعة والزبيريين والأمويين والأعشين الثلاثة: أعشى بني تغلب، وأعشى ربيعة، وأعشى همدان، وشعر جرير والفرزدق وشعر حرب الروم، والحرب وراء خراسان.. متوصلاً بذلك إلى ذكر حقائق ونصوص صحيحة، ودقائق تاريخية وفنية تلقي نوراً جديداً على الحروب العربية البيزنطية طوال القرنين التاسع والعاشر للميلاد، فكان له بحقٍّ فضل السبق بهذا الموضوع في تاريخ الأدب العربي. قال الدكتور عبد الوهاب عزام في تقديمه لهذا الكتاب:

«لقد عكف فيه مؤلفه عكوف الباحث المخلص المتثبت الذي لا يقنع بما دون الغاية، ولا يسكن إلى الدعة، ولا ينوء به النصب والدأب».

وقال (محمد عبد الغني حسن) أيضاً:

«وحين يسلك الدكتور المحاسني المسالك الوعرة في التأليف، يذهب مذهب الاعتدال والنزاهة في الأحكام، فلا يجور عليها، ولا يبترها، بيد أنه يقرأ ويحقق ويوازن، ويحكم بعد اقتناع واعتقاد».

ويكفيه فخراً شهادة (عباس محمود العقاد) فيه بقوله:

«اعتمد المؤلف على ذوق الأديب، وتمحيص العالم في اختياره من

القصائد، فجاء الكتاب زبدة منتقاة، وذخيرة ممتعة للقارئ، تجمع له ما تفرق بين مئات المراجع، وتزيد عليه تعليقات النقاء ومواضع الاستدراك التي يهتدي إليها الباحث والمؤرخ يودعها خلاصة تفكيره وملاحظته، وأخطرها تلك الصفحات التي كتبت عن الدولة الحمدانية حيث برز المتنبي وأبو فراس بين أسمائها، كما برزت عواطف الأبطال والأمهات والبنين والبنات، فيما تداوله العرب والروم من مواقع القتال، ومواقف الأسر والفداء، فإن هذه الصفحات أحرى بأن تسمى ملحمة شعرية يؤلفها القارئ في ذهنه، ويتممها بخياله، ويملأ بها فراغ الملاحم التي كثرت في الآداب الأجنبية وقلت في الآداب العربية»[١].

وعلى إثر حصول المحاسني على درجة الدكتوراه في الأدب العربي من جامعة القاهرة، وصدور كتابه (أدب الحرب) كتب إليه الدكتور مصطفى الخالدي كلمة بعنوان: (**إلى أديب سورية الكبير الدكتور زكي المحاسني**) قال فيها:

«لا أستعظم على مواهبك الفذة ونشاطك الجم وطموحك الوثاب، أن تتعاون كلها عناصر قوة وخير وإبداع، فتفتح أمامك آفاق الثقافة الواسعة، وتحلق بك في أجواء المعرفة اللانهائية، فإذا أنت في مدى سنوات معدودة؛ ضارب في كل العلوم والفنون بسهم وافر، وإذا أنت إلى إبداعك كل الإبداع في الشعر عَلَمٌ من أعلام البلاغة وركن من أركان الأدب في الفصحى التي نَمَتْكَ أعراقُها، وأطاعتْكَ شَوَارِدُها، وانفتحت لك مَغَاليقُها.

أيها الشاعر العالم!.

إن كل أديب عربي ليغبط فيك سورية الشقيقة التي رفعتَ رأسها عالياً حينما أحرزت شهادة الدكتوراه في الآداب بتفوق نادر، أدهش أساتيذ الجامعة

---

(١) من مقال للأديب الناقد الأستاذ عيسى فتوح عن بحث بعنوان: (شعر الحرب في أدب العرب) للعقاد في كتابه (أشتات مجتمعات)، نشر في مجلة اليرموك ـ الأردن، سنة ١٩٩٤م.

المصريـة، وأطلق ألسنتهم بالثناء على نشـاطك، ورجحان أدبك، وسـداد منطقك، وعمق تفكيرك.

لقد برهنتَ لهم في ساعات الفحوص الرهيبة، إذ تجيب على أسئلتهم بكل طلاقة وافتنان، أنك تغرف من بحر، وأن أشعة ذكائك البنفسجية تخترق الحُجُب المحيطة بمَجَاهِل العلوم، وأنك تحسن أن تتصرف بما تعلم تصرف الخبير المطمئن.

فهنيئاً لسورية الشقيقة بمفخرة من مفاخرها يفتتح عهد الشباب بجمع ذخائر العلوم ليتحف غداً بها المجتمع السوري التواق لمجاراة أرقى المجتمعات، بل هنيئـاً للعروبـة يطلع عليها بردى من آيات النبوغ والعبقرية ما يجدد تاريخها الذهبي، ويرفع للشعر والأدب دولة وأية دولة[1]!!.

* * *

---

(١) نشر في جريدة (البلاغ) ببيروت ع(١٨) حزيران سنة ١٩٤٧م.

٣ ـ النواسي، شاعر من عبقر

إصـدار دار الأنـوار، بيـروت، سلسـلة مفكرون من الشرق والغرب، ٨.

هذا الكتاب من بواكير أعمال د. زكي المحاسني الأدبية، تحدث فيه عن شاعر من الشعراء البارزين عند العرب هو النواسي، أو الحسن بن هانئ.

وهو كما قال الأديب اللبناني (بديع شبلي) أول كتاب عن الشاعر النواسي يخلو مما تنصرف عنه الأخلاق والغيورون على تربية النشئ تربية سوية، وتنشئة لا غبـار عليها قويمـة، إذ عزف المؤلف الباحث عن شعر أبي نواس المجوني وما إليه.

ويقول أيضاً: «تهزك قراءته، وتدعوك إلى الاستمرار، فالأسلوب أخّاذ، والسرد لطيف مشـوق تشـيع فيه الحوادث المسـهبة والمحاورات المغريـة على طرافة وأي طرافة، إنه يروي سيرة أبي نواس بأسلوب إخباري ونسج قصصي مشوِّق»(١).

يتحدث د. المحاسـني في بداية الكتاب عن حياة أبي نواس في فصل بعنوان (شروق أبي نواس)، نشأته وحياته في الكوفة حيث تعرَّف إلى أدبائها ورواتها الذين أعجبوا به وبطلاقة لسانه وحسن بديهته، ورافق (خلف الأحمر) فأفاد منه كثيراً في صناعة الشعر، وقد مهد الأحمر لأبي نواس، الحسن بن هانئ للانتساب إلى أشراف العرب، وهو الذي كناه بأبي نواس.

---

(١) مجلة (الورود)، ع(تشرين الأول)، ج(٢)، ١٩٧١م.

وهكذا أتقن أبو نـواس الشـعر، وتعرف إلى فنون وعلوم أخرى كعلم النجوم والطبيعيات وغيرهما.

على أن حيـاة أبي نـواس كانت حيـاة مجون، لكنه كان يتوب إلى الله، ويُقْبِل على العبادة والاستغفار.

وقد خصص المحاسني فصلاً للبحث في عصر النواسي والحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في هذا العصر الذي ظهر فيه أفذاذ الفكر والفقه واللغـة والأدب.

وتناول شعر النواسي بالدراسة، وهو شعر يعبر عن البيئة والمجتمع الذي عاش فيه الشاعر في بغداد، مبدياً رأيه في هذا الشـعر الذي يعكـس شـخصية صاحبـه، وقد كان من الشـعراء المجددين فجاء بفنون لم يعرفها العرب في شعرهم من قبل. وكانت لغته رفيعة القالب، جزلة الألفاظ، حلوة التراكيب.

وقد تخيل د. المحاسني الشاعر أبي نـواس كفنان يصور بريشـته الحياة بقوله:

«كان النواسي يصور بالألفاظ المغمورة بالبيان».

أما أغراض الشـعر عند أبي نواس فكانت الوصف، والغـزل، والهجاء، والمديح، ولـم يخل شعره من الحكمة.

* * *

٤ ـ ديوان الشريف العَقيلي

إصدار دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، مصر، ١٩٦٥.

هو ديوان لشاعر مطبوع منسوب لبني عقيل بن أبي طالب، وهو (أبو الحسن العقيلي) الذي عاش حتى منتصف القرن الخامس الهجري، وقد شهد عهد الخليفة (الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور).

أراد د. المحاسني أن يحقق هذا الديوان ليُعرِّفَ بتراث شعري لشاعر كانت له مكانة مرموقة بين الناس، أعانه عليها عزه وجاهه وشاعريته الموهوبة.

وقد مهد المحاسني لهذا التحقيق بمقدمة وافية، فيها تعريف بالشاعر العقيلي وبعصره، فالعقيلي «يعد في المقارنة بشعراء زمنه ومن تلاهم أصدقهم قريحة، وأقربهم من الطبيعة، وأكثرهم افتتاناً بالوصف والتصوير، وأعجبت بصدق شعوره وشفوف طبعه، واعتزازه بكرامته، فضلاً عن نصاعة شعره وأناقة صوغه»[١].

وقدم د. المحاسني وصفاً تفصيلياً لنسخ مخطوطة الديوان وأماكن وجودها في المكتبات، وأهمها النسخة الأصلية الموجودة في مكتبة (الإسكوريال) وتعد النسخة الأم، وقد ذكرها بروكلمان في فهرسه المعروف باسم (تاريخ الأدب العربي)، والنسخة التي اعتمد عليها في تحقيقه مطابقة لنسخة الإسكوريال وهي نسخة مصورة للمخطوط حفظت في معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية في القاهرة.

---

(١) انظر مقدمة التحقيق للديوان، ص١٠.

وقد بذل د. المحاسني جهداً كبيراً في جمع معلومات عن هذا الشاعر الكبير، إذلم تذكر المصادر القديمة تفصيلات تتصل بحياته وبيئته، أما المؤلفات الحديثة في الأدب والشعر، فقد أشارت إليه إشارات عابرة.

غير أنه تمكن من دراسة حياة الشاعر من خلال بعض ما ذكر عنه في مصادر تحدثت عن الشعر أيام الفاطميين لعل أهمها (الثعالبي) في (يتيمة الدهر)، و(الصلاح الصفدي) في (الوافي بالوفيات)، و(ابن شاكر الكتبي) في (فوات الوفيات)، وبهذا أحاط بأهم ملامح حياته وشعره.

وقد كان العقيلي يحيا كما يحيا الأمراء والرؤساء وذوو الثراء، ففي شعره وصف لهذه الحياة وللمآدب التي كان يقيمها الشاعر لأصدقائه وخلاّنه في بساتينه النضرة الوارفة، ورغم وجوده في عصر شاع فيه الملق والتزلّف.

وبيَّن د. المحاسني في دراسته للشاعر العقيلي خصائص الديوان من الوجهة الشكلية والموضوعية، وامتيازه بجزالة الديباجة وحلاوة المعنى ودقة التصوير والبعد عن الركاكة.

وهذا الديوان الذي تركه الشاعر على حد قول د. المحاسني «دليل عليه، ونبراس يضيء ما خفي واستبهم من حياته وشؤون عصره».

ومن نماذج شعره في ديوانه الأبيات التالية:

قال في القناعة:

إذا كـانَ لـلإنسـانِ رزقٌ تقـاذفـتْ ... إليـه بـه الأيـامُ مِـنْ كُـلِّ جـانـبِ
فـلا تركبِ الحرصَ الذي إنْ تركتَـه ... رَمَى بِـكَ في وَعْرِ الظّنـونِ الكواذِبِ

وقال:

دعِ الحرصَ في الرِّزقِ مهما صَعُبْ ... ولا تُكْثِـرَنَّ لـه في الطَّلَـبْ
وَثِـقْ بـالإلـهِ ولا تَيـأَسـن ... فيُتْعِبُـكَ الحِـرْصُ كـلَّ التَّعَـبْ
فَـرُبَّـتَ رزقٍ يَجِـيءُ الفَتَـى ... بـرجلَيْـهِ مِـنْ حيـثُ لا يَحْتَسِـبْ

وقال في الزهد:

ألا طـوبـى لِمَـنْ أمسَـى وأضحَـى   خَفِيْـفَ الظهـرِ مِـنْ ثقـلِ الـذُّنُـوْبِ
تجـرُّ خصـالُـه منـا لـدينـا   ذيـولاً مـا تَـدَنَّـسُ بـالعيـوبِ
يغيـبُ عـن الأبـاعِـدِ والأدانـي   لِخَلْـوَتِـهِ بِعَـلاَّمِ الغُيُـوبِ

وقال في الفخر:

لنـا أسمـارُ نَعقِـدُهـا علينـا   وحَـولَ بيـوتِنَـا الغُـرُّ الجِيَـادُ
أنـاسٌ زهـر جـودهُـمُ العطـايـا   ونبـتُ ريـاضِ رأيهـمُ السَّـدادُ
إذا سـاروا إلـى الهَيْجَـاءِ سـاروا   وليـس لهـم سِـوَى الأقـدارِ زادُ

وقال في الهجاء:

يـا ذا الـذي ليسـت لـه لفظـةٌ   خفيفـةُ الـرُّوحِ إذا مـا شَعَـرْ
لا تحسُـدَنْ شعـري علـى حُسْنِـهِ   فليـسَ للحـاسـدِ إلا الحَجَـرْ

وقال في وصف الطبيعة:

الـرَّعْـدُ مُنْتَحِـبٌ، والبَـرْقُ مُلْتَهِـبٌ   والقَطْرُ مُنْسَكِبٌ، والمَاءُ مُضْطَرِبُ
والـرَّوْضُ مُبْتَسِـمٌ، والـزَّهْـرُ مُنْتَظِـمٌ   والشَّمْـسُ تُسْفِـرُ أحْيَـانـاً وتَنْتَقِـبُ
والغَيْـمُ فـي الأُفْـقِ مَمْـدُوْدٌ سُـرَادِقُـهُ   والطَّيْـرُ يَصْفِـرُ والأوْتَـارُ تَصْطَخِـبُ
والجَـوُّ هـامَ كصـبٍّ صُـدَّ آلفُـهُ   فَـدَمْعُـهُ واكِـفٌ تَحْتَثُّـهُ الكُـرَبُ

* * *

٥ ـ المتنبي

إصدار دار المعارف بمصر، ط١ : ١٩٥٦م، ط٢ : ١٩٦٨م، ط٣: ١٩٧٠م، سلسلة : نوابغ الفكر العربي؛ ١٥ .

صوَّر الدكتور المحاسني الشاعر العربي الكبير (المتنبي) كأكثر شعراء عصره حماسة للقومية العربية وإحياء لها، وفي هذا الصدد يقول :

«كان المتنبي أكثر شعراء عصره حماسة للقومية العربية وإحياء لها، بل كان يذهب إلى أبعد من ذلك، إذ وقر في عزيمته أن يعيد للأمة العربية مجدها الزائل بتأليف العرب في حرب عاصفة يكون هو قائدها» .

واستهلَّ دراسته بالحديث عن عصر المتنبي، فقد رافق المتنبي أحداثاً سياسية في عصره وهو القرن الرابع للهجرة، ونتبيَّن من شعره الكثير من معالم هذه الأحداث .

أما الحياة الاجتماعية فقد شهدت تقدماً وازدهاراً، وكان من أثر هذا التقدم تألق الحياة الفكرية وخاصة الفلسفة التي اتبعت منهجاً علمياً وأولعت بغداد في أواخر القرن الثالث بالكتب والتأليف، وكانت حلب في أيام سيف الدولة الذي عاصره المتنبي دارَ علمٍ وأدب ومُلتقى للمفكرين والأدباء .

أما الحركة اللغوية فقد كانت ناشطة، وقد تمكن اللغويون من التأليف في المعجمات . وأشهرهم (إسماعيل بن حماد الجوهري) صاحب (الصحاح)، وكان التطور الذي مرت به الأمة العربية في هذا العصر قد ساهم في تنمية اللغة وعلومها كالنحو والصرف .

كذلك كان حالُ الأدب والشعر، وكان أبو الطيب أكثرَ الشعراء طموحاً .

وتناول د. المحاسني هذا الشاعر الطموح فبحث في مولده ونشأته، وقد تميز المتنبي بأن شعره جاء موضحاً لسيرته وحوادثه، ولم يتفق لشاعر عربي برزت أطوار حياته وعصره في شعره مثلما اتفق لأبي الطيب.

وقسّم المحاسني حياة المتنبي إلى أربعة أطوار، ثم انتقل إلى دراسة جوانب من أدب المتنبي وعلى رأسها شعره، فبحث في موهبته الشعرية فقد كان المتنبي شاعراً مطبوعاً نطق بالشعر وتأتّى له وهو غلام، وكان لحياته الأولى في البادية وبين الأعراب ومعرفته بأصول اللغة واستعمال الكلمة في موضعها من كلام العرب، أثر راسخ في موهبته وطبعه.

وتحدث د. المحاسني في كتابه عن ألوان شعر أبي الطيب المتنبي، وقال: إن شعره يمثل عصره بصدق، ويمكن أن نعرف منه ما حدث من حوادث ومحن في هذا العصر، فهناك شعره القومي، وشعره الذي تجلت فيه الحكمة، واختار من شعره في الحكمة والعبرة الأبيات التالية:

آلةُ العيشِ صِحَّةٌ وشبابُ فإذا ولَّيا عنِ المرءِ ولّى

* * *

أبى خلقُ الدنيا حبيباً تديمه فما طلبي منها حبيباً تردّهُ

* * *

ما كلُّ ما يتمنَّى المرءُ يُدركه تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ

* * *

غيرَ أنَّ الفتى يُلاقِي المنايا كالحاتٍ ولا يلاقي الهَوانا

* * *

فلا تَطْمَعَنَّ مِنْ حاسدٍ بمودةٍ وإن كنتَ تُبديها له وتنيلُ

ومن روائع شعر المتنبي شعره في الحرب والبطولة فقد صور الوقائع الحربية مع البيزنطيين، فكان شعره بوق الحرب الذي نام سيف الدولة في قبره على هدير صوته، ومن هذا الشعر الرائع وصفه لوقعة (الحدث الحمراء) سنة (٣٤٣هـ):

هلِ الحَدَثُ الحمراءُ تعرِفُ لونَها   وتعلمُ أيَّ الساقيينِ الغمائمُ
بناها فأعلى والقَنا تَقْرَعُ القنا   وموجُ المنايا حولها مُتلاطِمُ
خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زحفُهُ   وفي أُذُنِ الجوزاءِ منه زَمازمُ

ويمضي الدكتور المحاسني في دراسته لألوان الشعر عند المتنبي، كالمديح الذي يتميز به وبأسلوبه في المديح الذي يساوي فيه نفسه بالممدوح فهو يقول مثلاً:

ناديتُ مجدَكَ في شعري وقد صَدَرَا   يا غيرَ منتحِلٍ في غيرِ مُنتحَلِ

ومن ألوان شعره الأخرى الرثاء والهجاء والوصف.

وكما أن لكل نابغ حُسَّاد وخصوم، فقد كان للمتنبي خصوم ونقاد، وألفت كتب تبحث في هذه العداوة والخصومة ككتاب (القاضي الجرجاني) (توفي ٤٩٢هـ) وعنوانه (الوساطة بين المتنبي وخصومه).

وقد وصف د. المحاسني المتنبي بأنه شاعر عالمي له منزلة في الشرق والغرب، فقد احتل مكانة رفيعة ارتقى إليها بقوة واقتدار، وبين أنه قصد من كتابه عن (المتنبي) أن يكون بياناً لمنزلة الشاعر في الأدب العربي.

وخصص المحاسني الفصل الرابع من كتابه لمنتخبات من شعر المتنبي.

ومن هذه المنتخبات الشعرية، شعر في التوثب والطموح، والرحلة، والغزل، والفخر، والرثاء، والمديح.

وقد كان معظم شعره قصائد في المديح لسيف الدولة منها على سبيل المثال الأبيات التالية:

لكلِّ امرئٍ مِنْ دَهره ما تَعَوَّدَا   وعادةُ سيفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ في العِدى
وأن يكذب الإرجافَ عنه بِضِدِّهِ   ويُمْسِي بما تنوي أعادِيْهِ أسعدا
ذكيٌّ تظنِّيه طليعةُ عينِه   يرى قَلبُهُ في نومِهِ ما تَرى غَدا

ويركز الدكتور المحاسني في آخر كتابه على الشاعر الحكيم المتنبي، ويرى أن أبا الطيب تمرس بكل شأن من شؤون الحياة، فذاق حلوها ومرّها، وعرف بؤسها ونعيمها، وكان دائب التطلع إلى كل جديد، حتى أصبحت أبياته الشعرية في الحكمة والتجربة تردَّد في كل زمان ومكان، وتجري مجرى الأمثال.

فمن هذه الأبيات التي ترددت عبر العصور وفي عصرنا أيضاً، على سبيل المثال:

ما كلُّ ما يتمنّى المرءُ يُدركُهُ ... تَجري الرِّياحُ بما لا تشتهي السُّفُنُ

ومن نَكَدِ الدُّنيا على الحُرِّ أن يَرى ... عَدوّاً له ما مِنْ صَداقتِهِ بُدُّ

وإذا أتتكَ مذمَّتِي من ناقصٍ ... فهيَ الشهادةُ لي بأنِّي كاملُ

ذو العقلِ يشقى في النعيمِ بعقلِه ... وأخو الجهالةِ في الشقاوةِ يَنْعَمُ

* * *

٦ ـ طوقان .. شاعر فلسطين

حياته وشعره

إصـدار دار الفكـر العـربـي ـ القـاهـرة، ١٩٥٥م.

أهدى د. المحاسني كتابه عن (إبراهيم طوقان) شاعر الوطن المغصوب فلسطين إلى شقيقة الشـاعر الشـاعرة الكبيرة فدوى طوقان التي عبرت أيضاً بشعرها الموهوب عن جراح فلسطين في نكبتها، وكانت النغم الحزين والشعلة الباقية بعد أخيها إبراهيم.

استهلَّ دراسته عن الشـاعر بمقدمة تحدَّث فيها عن الشعر المعاصر وأغراضه، وعن ظروف تأليفه لهذا الكتاب، فقد وجد أن طوقان من أفذاذ شعرائنا المعاصرين، وتاق إلى الحديث عن حياته وشعره في كتاب، وتمكن من الحصول على بعض الأوراق التي زودته بها الشاعرة فدوى طوقان من تراث أخيها، فحمل المحاسني الأوراق إلى مصر، التي حن إليها إبراهيم طوقان في حياته، وصدر الكتاب في مصر البلد الذي تربطه بفلسطين مع الشعوب العربية رابطة الإخاء والجوار والنضال لاستعادة الوطن المغصوب، وما كان شعر إبراهيم إلا من لحم هذا الوطن ودمه.

وفي الفصل الأول يتحدث عن حياة الشـاعر، مولده وموطنه نابلـس، وتَعلُّق إبراهيم الفتى بالشعر والزجل في حداثته، وولعه بالقرآن الكريم، وإفادته من بلاغته وبيانه حين انتقل إلى الدراسة الثانوية والجامعية سنة (١٩٢٣م). وقد درس في الجامعة الأمريكية في بيروت بعد ذلك، وأولع بنظم الشعر، ورغم ضعف إبراهيم ومعاناته من مرض مزمن، فقد كانت نفسه تتفتح للشعر، ويقدح

خاطره شعور وطني يدفعه لقول الشعر الوطني.

وعمل بالتدريس بعد تخرجه من الجامعة، ثم في إدارة البرامج العربية في إذاعة فلسطين.

أما أدب إبراهيم فقد كان ينمُّ عن أديب مطبوع وباحث محقق، وكان موسوعي الثقافة في الآداب العربية والعالمية.

وبحث د. المحاسني في الفصل الثاني من كتابه في ظروف الحياة السياسية والوطنية في فلسطين في الأيام التي عاشها إبراهيم، وقد كانت حياته قصيرة، فقد مات وهو في ريعان الشباب، وكانت فلسطين حفية بشاعرها الأبي، الذي كان يقف في الحفلات متهكماً بأعداء البلاد، وكان وهو لا يزال طالباً في الجامعة الأمريكية ثم بعد تخرجه منها سنة (١٩٢٩م) الصوت المدوي للحركة الوطنية ضد الاستعمار والخداع، فاقترن اسمه بقضية فلسطين ومحنتها، وكان كما قال المحاسني: «الشاعر المحامي عنها، واللسان الصادق للقومية العربية في عهدها الحديث».

وتناول د. المحاسني أيضاً في هذا الفصل بالدراسة الحياةَ الفكرية والاجتماعية في زمن طوقان، فلم تكن فلسطين منعزلة عن الحياة الفكرية في الشرق والغرب، كما لم تكن السياسة ومشاغلها عائقاً دون ظهور طلائع الأدب الفلسطيني في الشعر والنثر والقصة، وهنا يعطينا د. المحاسني صورة لما كان عليه هذا الأدب في ذلك الحين.

وينتقل في الفصل الثالث للحديث عن شعر إبراهيم طوقان وموهبته الشعرية الفائقة، وقد بدأ حياته الشعرية بالغزل، فأعطانا من شعره كل غزل حبيب، وقل أن يبدأ الشاعر بدون غزل.

على أن شعره الوطني كما يقول المحاسني: «هو لهيب مستعر، من قلب ثائر، ومنتوج طبيعي لحوادث ألمّت بفلسطين تناولت حياتها الوطنية والقومية، فعبَّر عنها شاعر موهوب ربطه بالأرض منبت وثيق، فقد نشأ مع نشأة هذه

الحوادث الفظيعة، ورافق شبابه ما رافقها من رواغ المستعمر واغتصاب الدخيل»، فكان في شعره الوطني تصوير صادق للحوادث التي ألمت بوطنه فلسطين، وكان بارعاً في هذا التصوير، يعتمد على إبراز صوره الشعرية في إطار واقعي، مما جعل لطوقان منزلة كبيرة بين شعراء العصر، وقد عقد المحاسني مقارنة بينه وبين هؤلاء ومنهم الشابي.

وخصص الفصل الرابع لدراسة بعض مختارات تمثل روائع شعر إبراهيم طوقان أصدق تمثيل منها قصيدة بعنوان (معين الجمال) ومنها الأبيات التالية:

أَسْعِدِيْنِي بِزَوْرَةٍ أو عِدِيْنِي ... طَالَ عَهْدِي بِلَوْعَتِي وَحَنِيْنِي
أَدَّعِي الهَجْرَ كَاذِباً وَغَرَامِي ... فِي قَرارٍ مِنَ الفُؤادِ مَكِيْنِ
غِيْضَ دَمْعِي وكَانَ رَيّاً لِرُوْحِي ... مِنْ غَليلِ الأَسَى فَمَن يَرْوِيْنِي

أما شعره الوطني فهو قِمّة إبداعه، وقد بدأ اتجاهه إليه منذ عام (١٩٢٣م) كما يقول المحاسني، وقد نشر أول أبيات في الشعر الوطني في صحيفة بفلسطين، وكانت تعبر عن شعوره الوطني وتفاعله مع ما يمر على أمته من أحداث جسيمة.

وحدثت في عام (١٩٢٩م) غضبة من العرب المسلمين في القدس، لأن اليهود الغاصبين كانوا دائمي التحرش والعدوان على المقدسات الإسلامية وأبرزها جدار البراق في القدس، فنظم إبراهيم قصائد عن الأبطال الذين كانوا يدافعون بأرواحهم عن بلادهم منها الأبيات التالية:

أنا ساعةُ الرَّجُلِ الصَّبُورِ ... أنا ساعةُ القَلْبِ الكَبِيْرِ
رَمْزُ الثَّبَاتِ إلى النِّهَايةِ ... في الخَطِيْرِ مِنَ الأمُورِ
بطلي أشدُّ على لقاءِ المَوْ ... تِ مِنْ صُمِّ الصُّخُورِ
جذلانُ يَرْتَقِبُ الرَّدَى ... فاعجبْ لموتٍ في سُرُورِ
أنذرتُ أعداءَ البلادِ ... بِشَرٍّ يومٍ مُسْتَطِيرِ
ما أنقَذَ الوَطَنَ المُفَدَّى ... غيرَ صَبَّارٍ جَسُورِ

وكـان يحذِّر أمتـه من تدفق الهجرة اليهوديـة بتيسير المستعمر ومكره المعهود:

أرى عـدواً فـي الشـؤم لا كثـلاثـةٍ	وعشـرٍ ولكـنْ فـاقَـهُ فـي المصـائـبِ
هو الألفُ لم تعرفْ فلسطينُ ضربةً	أشـدَّ وأنْكَـى مِنْـهُ يَـومـاً لضـارِبِ
يهـاجِـرُ ألـفٌ ثُـمَّ ألـفٌ مُهَـرَّبـاً	ويُـدْخِـلُ ألـفٌ سـائحـاً غيـرَ آيـبِ
وألـفُ جـوازٍ ثـمَّ ألـفُ وسيلـةٍ	لتسهيـلِ مـا يلقـونَـهُ مِـنْ مصـاعِـبِ
بنـي وطنـي، هـل يقظـةٌ بعـدَ رقـدةٍ	وهل مِنْ شُعاعٍ بينَ تلكَ الغياهِبِ

إن كتاب د. المحاسني عن هذا الشاعر المبدع يُعد فريداً في تناوله لأهم الجوانب والقضايا التي تأثر بها الشاعر، فقدم لنا صورةً جلية عن شاعر تفاعل مع قضايا وطنه وأوجاع هذا الوطن المغصوب والذي لايزال يعاني الآن من المغتصب الصهيوني المحتل، فللمحاسني الفضل في تقديم هذا الشاعر الذي قل من اعتنى بدراسته.

* * *

٧ ـ دراسات تاريخية
في النهضة العربية الحديثة

اشترك في تأليف هذا الكتاب د. (زكي المحاسني) مع د. (محمد بديع شريف) و(أحمد عزت عبد الكريم). وأصدرته الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، القاهرة.

وقد أعد د. المحاسني الفصلين: **الثاني** ويتعلق ببواعث الحياة الأدبية والفكرية في النهضة العربية المعاصرة) و**الخامس** عن فلسطين وسورية والأردن ولبنان.

ويبحث الكتاب في تاريخ النهضة العربية الحديثة التي كانت وليدة عمل متواصل لعدد كبير من الساسة والعلماء تفاوتوا في الزمن والثقافة، وقد كان للنهضة بواعث تتصل بالحياة الأدبية والفكرية تناولها د. المحاسني، وبين أن ارتباط الحركة الثقافية بالحركة السياسية أمر يكاد يكون نظاماً حتمياً أو اجتماعياً. إذ لولا انبعاث القومية والنهضة الوطنية لما حدثت نهضة فكرية، وقد تطلع العرب إلى تراثهم العظيم وآثارهم الفكرية التي تضم اللغة والثقافة بسائر أنواعها، فرفدت نهضتهم القومية والسياسية لتعطيها طابعها التجديدي من منابع اللغة والأدب والمعارف العقلية والدينية الإسلامية على اختلاف ألوانها.

وقد بحث د. المحاسني في معالم الثقافة العربية في عهد المغول والعثمانيين، وأوّلُها تراث الكتب الذي ضم تراثاً علمياً كبيراً وتراثاً لغوياً وأدبياً، وأوضح أثر العلوم العقلية قبل النهضة المعاصرة.

كما بحث في حياة العلوم الفقهية والتفسير في عصر الانحطاط، وفي

أعلام التاريخ والجغرافية الذين مهدوا للنهضة كابن خلكان والصفدي وابن حجر العسقلاني، والمقريزي وابن تغري بردي وابن خلدون، ومن الجغرافيين والرحالة ابن بطوطة، وشيخ الربوة الدمشقي.

وانتقل للحديث عن التأليف في عصر الانحطاط، وقد كانت المؤلفات التي وضعها العلماء والأدباء جسراً كبيراً بين ماضي الأمة العربية وحاضرها وكما قال د. المحاسني في بحثه «من مصادرهم وردت النهضة العربية الحديثة التي وجدت أساسها مكيناً في التراث الفكري. فلم تكن نهضة مرتجلة، وإنما كانت نتيجة طبيعية لحياة الفكر والأدب واللغة في بلاد العرب، فللعلم روح يحيا بها، ويحمل الإنسانية على بقائه فيها، وما كان الناهضون المتأخرون إلا مسخرين لتلك الروح القومية الموروثة من عبقرية العرب وعزة الإسلام.

أما الفصل الخامس الذي أعده أيضاً د. زكي المحاسني في هذا الكتاب فقد تضمن حديثاً عن البلدان العربية: فلسطين، سورية، الأردن، ولبنان.

وقدَّم د. المحاسني دراسة تفصيلية للقضية الفلسطينية، وبحثاً حول النضال الوطني في سورية وتاريخ الأردن، وتاريخ لبنان في عهد الانتداب الفرنسي والحركة الثقافية التي ظهرت فيه منذ منتصف القرن التاسع عشر، ونهضة الصحافة في لبنان والمهجر.

وقد ألقت دراسات المحاسني في هذا الكتاب الضوء على أسباب النهضة الفكرية والثقافية وصورت الأحداث السياسية التي عاشتها هذه البلدان.

* * *

٨ ـ نظرات في أدبنا المعاصر

إصدار وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ الإدارة العامة للثقافة بمصر، سلسلة: المكتبة الثقافية، ٥٢، القاهرة: دار القلم، ١٩٦٢م.

هو كتاب وإن كان موجزاً لكنه يبحث في صميم الثقافة الراهنة لحياة الأمة العربية الحديثة.

يقول في تقديم كتابه: «الكلام على أدبنا المعاصر يستوعب مجالاً في كتاب أو مجلدة، وقد يجيء في كتب إذا قصد منه التوسع والاستقصاء، وليس هذا الكتاب تأريخاً للأدب الحديث، وإنما هو دراسة ونظرات في أدبنا المعاصر، بينت فيها المعالم العامة لهذا الأدب في منابته ونموه، وأطواره الفنية، وما يرجى له في المستقبل».

واستهلَّ د. المحاسني كتابه بتعريف الأدب الحديث، إذ إنه مقياس من مقاييس الوعي والتطور في عالم الفكر والشعور لكل أمة من الأمم، وتساءل هل في هذا الأدب ما ينهض به إلى مصاف الآداب العالمية في تصوير الحياة الراهنة، وإحياء التراث الفكري الماضي؟

وانتقل إلى الحديث عن تاريخ الأدب الحديث ومراحل تطوره التي كانت في المدة ما بين الحربين العالميتين في النصف الأول من القرن العشرين، فقد ظهر في هذه المدة في عالمنا العربي شعراء جدد وكتاب محدثون في القصة والمقالة والدراسة الأدبية والنقدية، وكان هناك عراك بين التقليد والتجديد.

أما أدب ما بعد الحرب الثانية فلم يحدث فيه من جديد إلا ذلك الضرب

من الشعر المرسل، الذي أقبل على صنعه الشبان المتعجلون، فهو في رأي المحاسني لا يعد شعراً ولا نثراً، ولم يدرك غايته من التجديد. لكن النثر حدثت فيه تطورات مميزة، فقد انطلق من قيوده القديمة، وكوّن صوراً متنوعة في التعبير وفقاً للذوق الحديث.

وأفرد د. المحاسني قسماً من كتابه للحديث عن أشهر شعراء العصر الحديث كـ(شوقي) و(حافظ) و(مطران)، وتناول بالبحث مدارس الشعر كـ(جماعة أبوللو) التي أسسها الشاعر (أحمد زكي أبو شادي).

وتابع حديثه عن ملامح الأدب الحديث، فتناول بالدراسة أدب القصة الحديثة وأدب المسرح، ودور الترجمة والتمازج الفكري في تحقيق التطور للأدب الحديث. فقد اتصل الشرق بالغرب عن طريق النقل والترجمة لأدبه وثقافته، فأخذ التطور سبيله إلى أدب العرب بعد ازدياد حركة الترجمة من الفرنسية والإنكليزية إلى العربية، وأخذت أداة التعبير تتحرر من قيود الأسجاع والتنطع في الألفاظ.

فلولا حركة الترجمة التي دبت في مستهل نهضتنا المعاصرة فنقلت إلى أدبنا روائع الفكر الغربي، في مناهج النقد والفلسفة وألوان القصة والمسرحية، لبقي أدبنا متخلفاً منطوياً على نفسه.

كذلك حدث تطور ملموس في مجال تحقيق المخطوطات، فإن حركة النشر للمخطوطات وتحقيقها كانت من المظاهر العلمية والقومية في عصرنا الحديث.

وقد بحث د. المحاسني أيضاً في موضوعات لها علاقة مباشرة بالأدب المعاصر وهي اللغة العربية، إذ لابدّ للغة العرب في هذا العصر من تطور يلائم الحضارة، لذلك رأينا مجامع اللغة العربية في الوطن العربي تهتم بالمصطلحات العلمية، وقد نهض بهذا العبء أعلام في مصر والشام والعراق ولبنان، فأغنوا لغة العرب الحديثة بتلك المصطلحات العلمية.

وأنهى د. المحاسني دراسته القيمة لمعالم الأدب العربي الحديث بتقييم رسالة الأدب المعاصر وهي في رأيه دراسة الفكرة الإنسانية وإبرازها في آثار الأدب، ويجب أن يكون الأدب هادفاً يرمي به صاحبه صوب غاية يسعى إليها ليبلغها، وهنا يجب التفريق بين الأدب الهادف والأدب الملتزم، فالهادف ذو غاية سامية تؤول إلى نفع وإصلاح، وأما الالتزام فهو تعنت مجرد يقوم في أثر الأديب وحده ولو كان تعسفياً.

ويتطلع د. المحاسني إلى أدب المستقبل الذي يحمل رسالة أدب منطلق من العروبة، متسم بروح الشرق، ممثل للنهضة الحديثة أحسن تمثيل.

* * *

٩ ـ أحمد أمين

إصدار معهد الدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٣م.

يشتمل الكتاب على محاضرات قيمة كان د. المحاسني، تغمَّده الله برحمته قد ألقاها على طلاب قسم الدراسات الأدبية واللغوية بالمعهد في السنة الدراسية (١٩٦٢ ـ ١٩٦٣م).

وقد استهل حديثه عن (أحمد أمين) بتعريف القارئ بالصلة الوثيقة التي ربطت بينه وبين الأديب والباحث العربي المصري (أحمد أمين)، فقد عرفه عن كثب، وتعمقت الصلة والصداقة بينهما أثناء إقامة المحاسني بمصر، وقد ساهم في الكتابة عن أحمد أمين أيضاً في كتاب أُعد في ذكراه وشاركت فيه زوجته الأديبة (وداد سكاكيني).

ولاشكَّ أن المحاسني قدَّم في هذا الكتاب دراسة مستفيضة عن علم بارز من أعلام النهضة الفكرية الحديثة في مصر والوطن العربي.

تناول في البداية عصر أحمد أمين، ثم تدريسه الجامعي الذي فتح أمامه آفاقاً جديدة في البحث والدراسة، حتى أصبح عضواً في مجامع اللغة العربية في مصر وسورية.

ثم انتقل للحديث عن مؤلفاته وكتبه ومن أشهرها إسلامياته (فجر الإسلام، ظهر الإسلام، وضحى الإسلام)، وهي كتب أرَّخت للحياة الفكرية والدينية في ظل الإسلام.

ولم يغفل د. المحاسني ناحية هامة في مؤلفات أحمد أمين وهي اهتمامه

بالتراث العربي، فهو محقق بارع لبحوث هامة في هذا التراث.

وكان قد حقق كتاباً عن (حي بن يقظان) لابن طفيل، واختار له عنواناً هو (حي بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردي).

ومن مؤلفات أحمد أمين الأخرى التي تناولها المحاسني بالدراسة (زعماء الإصلاح في العصر الحديث).

وقد اعتنى علاوة على ذلك بدراسة شخصية أحمد أمين وجَمْعِه كمفكر بين البحث الأدبي والعلمي، وامتلاكه لصفات العالم الحقيقي.

هذا، إلى جانب عنايته بدراسة أسلوبه ومنهجه في الكتابة والتعبير، فقد اتَّسم أسلوبه بالوضوح، وخاصة في كتابه (إلى ولدي) وفي سيرته الذاتية (حياتي)، وكلا الكتابين حمل خواطره وتجاربه في الحياة والمجتمع.

وفي الفصل الأخير يبحث في تأثير أحمد أمين ومكانته ككاتب ومفكر، بالإضافة إلى تقديمه لنماذج من أدب أحمد أمين وتفكيره.

* * *

١٠ ـ عبد الوهاب عزام
في حياته وآثاره الأدبية

القاهرة، معهد الدراسات العربية،
١٩٦٨م.

يحوي هذا الكتاب على محاضرات ألقاها الدكتور المحاسني على طلبة معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، تحدَّث فيها عن صديق عزيز هو الدكتور (عبد الوهاب عزام) الذي كانت له مواقفه الأخوية الصادقة ومشاعره النبيلة التي أثرت في نفس المحاسني، فأراد أن يوفيه قليلاً من حقه في دراسة وافية، تحدث فيها عن معرفته بعزام كأستاذ جامعي عندما كان مشرفاً على طلاب الدراسات العليا في جامعة القاهرة، ومنهم المحاسني الذي كان يقدم فيها أطروحته لنيل الدكتوراه في الأدب العربي.

من موضوعات الكتاب:

ـ الدكتور عبد الوهاب عزام رائد العروبة وأديبها.

ـ أدب الدكتور عزام.

ـ عزام الصوفي وأدب التصوف عنده.

ـ كتابه (النفحات) وهو مجموعة من المقالات.

ـ كتابه (الشوارد) أو خطرات عام.

ـ ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام.

وتناول د. المحاسني عزام كرحالة جاب الآفاق حتى وصل إلى نيسابور،

وولعه بالثقافة الفارسية والباكستانية، فقد ترجم عن الأدب الصوفي الفارسي (المثنوي)، وكتب عن سيرة الشاعر (إقبال)، وغير ذلك من الكتب المترجمة عن الفارسية.

كما كان محققاً دقيقاً في عمله، اشترك في تحقيق كتابين هامين من التراث العربي هما (الشاهنامة) للفردوسي، وكتاب (الورقة في تاريخ الشعراء).

* * *

١١ ـ الأدب الديني

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في القـاهـرة، مكتبـة الأنجلـو المصـريـة، ١٩٧٠م.

يتحدّث الأستاذ الباحث محمد سعيد الطريحي في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب (الأدب الديني) عن سيرة المحاسني وآثاره مع طاقة من شعره وأقواله وآراء الدارسين فيه، فقال:

«من لا يعرف العلامة المحاسني يجهل ولا شكّ علماً من أعلام العربية ورائداً فذاً من كبار علمائها وأساتذتها، الذين أسهموا بعطائهم السخي في رفد تراثنـا العربي والإسـلامي بالفكر الخصيب المبدع المتجدد، وأمدوه بالنهج القويم الحضاري الأمثل.

ومن يجهل تراث المحاسني يغفل أفضل دراسة كتبت عن (أدب الحرب عند العرب)، ويغفل ثروة من القصيد العربي الفاخر، ودراسات من أبدع ما كتب في أدب السيرة العربية المعاصرة عن كوكبة من رجال الفكر والأدب كـ(المتنبي) و(المعري) و(النواسـي) و(الشـاب الظريف)، ومن رجـال الأدب المعاصر كـ(إبـراهيم طوقان) و(عبد الوهـاب عزام) وغيرهم، وكتـب أخرى من أمتع البحوث في الأدب العربي واللغة العربية.

ويتابع الباحث اللامع الطريحي تقديمه للمحاسني كعلم بارز من أعلام الأدب العربي المعاصر فيقول: إنه من غير المستغرب إعادة طبع كتب المحاسني فهي لكثرة الطلب عليها نفدت من الأسواق، ومنها هذا الكتاب الذي تناول فيه

المحاسني الأدب الديني، وهي دراسة فريدة قل نظيرها في الدراسات الحديثة التي تناولت الأدب العربي.

وفي هذه الدراسة تعمق المحاسني في بحثه ومعرفته بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وقد أورد الباحث الطريحي قولاً في المحاسني للأديب العراقي (وحيد الدين بهاء الدين) هو التالي:

«كفى المحاسني أنه من نوابغ دمشق، ومن بناة مجدها الأدبي الأصيل على مدى طويل ناهز الأربعين سنة، وأن التاريخ يعرف كيف ينصفه، وكيف يقدر الرسالة التي أداها في قيادة قافلة الأدب الحديث كرائد طليعي دعم النهضة الأدبية المعاصرة، وقد ازدهى به عمق الرؤية وشوق الفن، وأمانة الغاية»[1].

* * *

---

(١) انظر (الجانب الديني والوجداني في حياته) ص٣١.

١٢ ـ أساطير ملهمة

إصدار دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠م.

عالج د. المحاسني في هذا الكتاب قضية هامة في ثقافات الأمم وتراثها وهي الأساطير التي كانت تنتقل من أمة إلى أمة ومن شعب إلى شعب، وذكر أنَّ تلك الأساطير تعدّ في نظر العلماء أساساً للبوادر الاعتقادية الأولى لدى الإنسان.

ويقدِّم المحاسني وصفاً كاملاً لأصل هذه الأساطير وتطورها وبقائها في تراث العالم العلمي والفني، وأثرها الملهم.

ويتساءل في مقدمة الكتاب: هل الأساطير علم أو فن؟ وكلمة أساطير (légende) قد تتعدى عالم الوهم إلى حياة شعب من الشعوب أو عشيرة من العشائر، كما هو الحال في الأساطير الهندية أو اليونانية.

ويتحدث في مقدمته عن آراء الفلاسفة والباحثين في الأسطورة، أما هو فيرى الأثر الكبير للأسطورة في الأدب العالمي فيقول:

«وقد بان جدوى الأساطير على الفكر الإنساني والشعور الذي رُكب في النساء والرجال فكانت سير الأساطير رياحين على الأدب الغربي وبخاصة الآداب الفرنسية. ويتجلى ذلك في الأدب الكلاسيكي الذي كان مرآة وفية للأساطير الإغريقية، حتى جاء الأدب الرومانطيقي، فانتزع الأخيلة والحوادث من بين أيدي الأساطير التي كان إشعاعها في الحياة الإنسانية منبراً للقلوب والعقول على السواء».

وقد نظم د. المحاسني قصائد صور فيها الأساطير الشهيرة من خلال

الشـعر، هذه القصائـد تروي قصص الأسـاطير، فكان مبدعاً في هذه الناحية الأدبية، وبدأ بأسطورة عربية جاهلية بعنوان (الشِّعْرَيان)، فقد عُرفت لدى العرب في الجاهلية أساطير، وهي لم تسيطر على الشعر الجاهلي كما سيطرت أساطير الإغريق على شعر الأمم في عهدها الكلاسيكي.

وقدم من الأساطير اليونانية قصائد (بان وأفروديت)، و(جنيات البحار) و(السـعادة في أسـاطير اليونـان)، و(عرائـس الشعر)، (سيزيف)، حصان طروادة)، وغيرها، تحكي قصة هذه الأساطير.

* * *

١٣ ـ الشاب الظريف

ط١ دار الأنوار، عام ١٩٧٢م.

أصدرت هذا الكتاب دار الأنوار ببيروت، وناشره هو السيد (تحسين موسى)، وقد كتب مقدمة وجيزة للكتاب قال فيها:

«عندما أعددت هذه الدراسة القيمة عن (الشاب الظريف) للنشر، لم يدر بخلدي قط أن أديبنا الكبير الدكتور زكي المحاسني مؤلف هذه الدراسة كان يودع الحياة».

وكان السيد تحسين موسى قد نشر للمحاسني دراسة أخرى عن أبي نواس قبل ذلك بسنوات.

أما كتاب (الشاب الظريف) فقد صدر بعد وفاة المحاسني ببضعة أشهر في سنة (١٩٧٢م)، ويتضمن دراسة قيمة عن شاعر عاش في القرن السابع للهجرة، واسمه شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التِلمساني.

واستهل دراسته بالحديث عن الحياة السياسية في العصر الذي عاش فيه هذا الشاعر، وتعرض أيضاً للحياة الفكرية والأدبية.

وبحث في الفصل الثاني بالتفصيل عن الشاب الظريف، حياته، شخصيته وثقافته، فقد ولد في مصر سنة (٦٦١هـ) وهو في الأصل من بلدة تِلِمْسان، ولذلك سمي التلمساني.

أما شخصيته فقد وصفها (ابن فضل الله العمري) في كتابه الشهير (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) في نبذة نقتبس منها هذه السطور:

«نسيم سرى، ونعيم جرى، وطيف لا بل أخف موقعاً منه في الكرى، لم

يأت إلا بما خف على القلوب، وبرئ من العيوب، رقَّ شعره فكاد يشرب، ودق فلا غرو للقُضُب أن ترقص والحمام أنْ يَطْرَب، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان، وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم افتتان بشعره، وخاصة أهل دمشق، وأكثر شعره لا بل كله رشيق الألفاظ، سهل على الحفَّاظ. . . إلخ».

بهذه الكلمات التي أوردها المحاسني على لسان (ابن فضل الله العمري) استطاع أن يقدم للقارئ شاعره الشاب الظريف.

ويخصص المحاسني الفصل الثالث للحديث عن شعر الشاب الظريف ويأتي بمنتخبات في الغزل والمديح وبعض الموشحات، مع دراسة لهذه الأشعار وتعليقات عليها.

وختم كتابه بفصل عن خاتمة الشاعر فقد كانت وفاته في نضرة شبابه عام (٦٨٨هـ) وقد دفن في مقابر الصوفيين بدمشق، فتأثر والده لوفاته وكان أديباً وشاعراً أيضاً.

وانتقد المحاسني بعض من نشروا شعراً لهذا الشاعر، إذ لم يكن بينهم باحث أو ناقد يصطنع التحليل والدراسة لهذا الشعر كما تقتضي المناهج الحديثة.

ومهما يكن من أمر فإن دراسة المحاسني للشاب الظريف تنم عن جهد علمي فهو كباحث علمي درس نسخ مخطوطات ديوان الشاعر المختلفة، وتقصى كل ما كتب عنه، ووصف الطبعات القديمة لهذا الديوان:

أما ما كتب عن الشاعر فهو نزر يسير، وهو عون قليل في الدراسة عن الأديب، وأثره، فنحن إذن نتجه بالاعتبار الأصيل إلى ديوان الشاعر الظريف نستطلع فيه طُلْعَ نزعته في الشعر، ونقدّر قيمة هذا الشعر، في فحواه ومبناه».

ولا يخلو كتاب (الشاب الظريف) من طرافة عبر عنها الأديب الباحث د. صفاء خلوصي في مقال له بعنوان: (الظريف المحاسني يكتب عن الظريف

التلمساني)[1]، فقال: «ومن الطريف أن المحاسني يعقد مقارنات بين الشاب الظريف وبين شعراء رومانسيين من الغربيين كتوماس شاتيرتون (١٧٥٢ - ١٧٧٠م) ودي فيني (١٨٣٥م)، كما قارن قصيدة للشاب الظريف بأخرى لأحمد شوقي.

* * *

---

(١) مقال نشر بمناسبة (ذكرى الصديق الدكتور المحاسني) (١٩٠٩ - ١٩٧٢م) في صحيفة (العرب)، لندن، ع(الإثنين ٢٠/ ٣/ ١٩٩٥).

١٤ ـ عباقرة الأدب عند العرب

دمشق، ١٩٩٥م

سعت إلى نشر هذا الكتاب ابنته (سماء)، وصدر الكتاب عن دار الأهالي بدمشق، وتتوزع موضوعاته حسب تدرج العصور، فهي تبدأ مع العصر الجاهلي، ويتحدث عن حالة الأدب فيه، أليس الأدب مرآة عصره؟ ويتوقف عند النابغة كنموذج عنه، دارساً وناقداً له، مستخلصاً أن الاعتذاريات تكاد تكون أشعر شعره، فيها يدافع الشاعر عن نفسه، ويلمز من خصومه ووشاته لدى النعمان، ثم يستغفره من ذنبه عندما وصف المتجرِّدة ـ إن كان ذلك ذنباً ـ ثم يستعتب ويخرج إلى المدح الرائع الذي أعجب به شيوخ الأدب القديم كبيتيه:

كأنَّكَ شَمسٌ والملوكُ كواكِبُ إذا طَلَعَتْ لم يبْدُ منهنَّ كوكبُ

فإنَّكَ كالليلِ الذي هو مُدركي وإن خلتُ أنَّ المنتأى عنك واسِعُ

ويدخل العرب في الإسلام أفواجاً، ويقبلون على القرآن الكريم يتفهمون سوره وآياته، ويتداولون بينهم أحاديث الرسول ﷺ، وبعد وفاته يجدون أنفسهم في عصر جديد هو عصر الخلفاء الراشدين، ذلك العصر الذي خلّف بين أيدي العرب تراثاً أدبياً فيه نثر من كلام الخلفاء، وظل الشعر في المرتبة الثانية، لأن الخطابة كانت أسرع أداء منه، وأبعد فعلاً وأقرب تناولاً، بسبب الخلافات التي حصلت في ذلك العصر وسعى كل طرف لاستقطاب أكبر عدد من الناس بالخطابة، ويأخذ حسان بن ثابت والحطيئة نموذجين.

أما في العصر العباسي، فقد أخذ الأدب العربي الصدارة في النهضة العلمية آنذاك يقول المحاسني: إنه أدب للعرب، أروع ما عرفته لغتهم من يوم

خُلقتْ إلى اليوم منثورة بلسان ابن المقفع والجاحظ والتوحيدي وابن العميد وغير هؤلاء من اليراع مسجوعة بتطريز الهمذاني والحريري وغيرهما من عشاق المقامات ومنظومة ببيان بشار وأبي النواس وأبي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي والمعري. . . ».

وفي الأندلس نشأ في الشعر العربي الموشحات والزجل وغيرهما، وانبسطت فيه أوصاف الطبيعة والعمارة وفنون الغزل ومطارحات الخمرة، وكان هذا الأدب الحديث يمضي وراء العرب في الشرق، مضي الولد خلف أبيه (ابن خفاجة نموذجاً).

يرى المحاسني أن أغراض الشعر القديم لاتزال في الشعر الحديث، ولولا ترك الوقوف على الدمن الخوالي، وعدم الوقوف بأبواب الأمراء والتكسب بالشعر لقال بإنكار الشعر العصري ولعد شعراءه من بقية العباسيين أو ممن بعدهم، وهناك أغراض جديدة في شعر المعاصرين ما عرفها السابقون كالشعر الاجتماعي لحافظ والشعر التمثيلي لشوقي.

«وقد بدرت بعد الحرب الآفلة بوادر جديدة في الشعر العربي الحديث كان فيها لتمازج الثقافة اللاتينية وغيرها بالعربية أثر لطيف، إلا أن هذا الأثر كاد يمحو من جمال القديم بسوء الاقتباس، فظهر في الشعر المستحدث ركة إسفاف فآذنت هذه الظاهرة بانحطاط الشعر العربي المعاصر، مما حمل رعاة الأدب على الاحتفاء بالشعراء المحافظين على المواضي الشعرية ممن لا تأخذهم في نظمهم رطانة ولا عجمة، وقامت حرب أدبية بين أنصار القديم والحديث لا تزال نارها مستعرة إلى اليوم».

كلمات عن الكتاب:

لم يعتمد الكتاب على تقديم أحد له، ويبدو أن المؤلف اختار أن يجعل كتابه يقدم نفسه بنفسه دون وساطة.

ويعتبر الكتاب شاملاً حيث إنه لم يشمل الشعر فقط بل كل الأجناس

الأدبية الأخرى من نثر وخطابة ومقامات وغيرها. وهو يشكل مرجعاً تاريخياً للأدب العربي والتطورات التي مرت عليه خلال السنوات الطويلة، ولا يأخذ المؤلف الأدب مستقلاً منفصلاً عن الواقع، ولم يكتف المؤلف برصد الأدب وعباقرته، وإنما قام بالتحليل والنقد واختار بدقة النماذج التي درسها.

وتلمح إخلاص المؤلف لمدينته دمشق من خلال الشعراء الذين درسهم كنماذج فقد ذكر وصفهم لدمشق.

يقول: «هكذا قال عن بلادي شوقي شعراً هو السحر، وقولاً خالداً أبد الدهر:

آمنتُ باللهِ واستثنيتُ جنَّتَهُ   دِمَشْقُ رُوْحٌ وجَنَّاتٌ وَرَيْحَانُ
قالَ الرِّفاقُ وقد هَبَّتْ خمائِلُها   الأرضُ دارٌ لها الفَيْحَاءُ بُسْتَانُ

وأخيراً أقول: إنه تحقق برأيي للمؤلف ما تمناه في مقدمة كتابه بأن يجد القارئ فيه غناء وروضاً أُنفاً، وأن يكون قد ألمَّ بأفضل ما خط الأوائل ونشر الأواخر عن عباقرة هذا الكتاب[1].

* * *

---

(١) دراسة عن الكتاب إعداد: عبد اللطيف يونس، نشرت في جريدة (الثورة)، دمشق بتاريخ ٢٦/ ٧/ ١٩٩٥م.

١٥ ـ أقاصيص العرب

الناشر: المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ٢٠٠٠م.

نُشرت هذه الدراسة للمرة الأولى بعد وفاة مؤلفها د. زكي المحاسني بعدة سنوات، فهي من مخطوطاته التي لم تنشر في حياته، وسعت إلى نشره ابنته (ذكاء).

قدم لهذه الدراسة د. (شعبان خليفة) أستاذ ورئيس قسم المكتبات في جامعة القاهرة[١]، فعرَّف بالدراسة وبكاتبها تعريفاً جيداً، فهي دراسة لفن القصة عند العرب تعرض فيها د. المحاسني لمكانة القصة في الأدب بصفة عامة والأدب العربي بصفة خاصة، كما عرض لأنواع القصة والشروط الفنية الواجب توافرها في القصة.

ومن أنواع القصص عند العرب القصة الشعرية والمقامة، وهذه الأخيرة تعد ضرباً هاماً من ضروب القصة العربية، وتشكل حلقة من حلقات تطورها.

أما القصة الشعرية فمنها قصص تروي حياة بعض الشعراء كما هو الحال في شعر امرئ القيس في الجاهلية، وأخرى تروي حكايات الطرد والصيد، وقد ظل الشعر القصصي سمة بارزة في الأدب العربي الحديث من خلال بعض المسرحيات القائمة على الشعر القصصي في أدب (عزيز أباظة) و(شوقي)، كمسرحيتي (غروب الأندلس) و(أوراق الخريف) و(مجنون ليلى).

---

(١) وهو زميل لابنتيه ذكاء وسماء في دراستهما للمكتبات.

والمقامة ـ وهي نمط آخر من القصص عند العرب ـ تجد فيها مجالس القضاء وندوات الفكر والشعر.

وبحث د. المحاسني أيضاً في القصة القرآنية فقال في هذا الصدد:

«لقد بسط القرآن أدبه القصصي على آفاق الآداب العالمية، وكان قبساً ونوراً لفن القصة في العالم إثر ظهور ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى كالفرنسية والإيطالية وغيرهما..».

سورة الكهف من البيان الإلـهي القرآني قد ظهر أثرها في أدب القصة العربية الحديث فنجد الأديب المشهور (توفيق الحكيم) قد كتب قصته المشهورة (أهل الكهف) وهي رواية تمثيلية تعد من أروع آثاره.

إن هذا الكتاب على إيجازه يعبر عن الموهبة الفكرية لدى د. المحاسني وعلى ثقافته الأدبية الواسعة، واطلاعه على الآداب العالمية واتجاهاتها الفكرية.

* * *

ثانياً ـ الكتب المخطوطة المعدَّة للطبع :

١ ـ فقه اللغة المقارن

يبحث د. المحاسني في فقه اللغة العربية، ويتناول في الفصل الأول المفهوم من كلمتي الفقه واللغة في علم اللسان، ومظاهر اللغة بصفة عامة وأصولها التاريخية، ويوضح علاقة اللغة بعلم الاجتماع، إذ إن علماء الاجتماع يُعرِّفون علم اللغة بأنه «الدراسة المنهجية للحياة الاجتماعية» ويدخل في نطاقه علم السياسة كما تَسنُد بناءه أركان الأسرة وحياة اللغة والدين والفنون فهو إذن مجموعة أعمال خطيرة من آثار المجتمع.

وقد عرف هذه الصلة فقهاء اللغة العربية ومنهم على سبيل المثال الشيخ (شهاب الدين الخفاجي) من علماء القرن الحادي عشر للهجرة في مصر، فقد وجد للغة مواضع في التأثير الاجتماعي.

وقدم د. المحاسني بحثاً تفصيلياً عن علم اللسان عند العرب في الفصل الثاني.

وقد روي عن النبي محمد ﷺ استعمال كلمة اللسان بدلاً من اللغة، ووجد د. المحاسني من القرآن والحديث دليلاً على أن كلمة اللسان كانت المستعملة بديلاً من كلمة اللغة في هذه النصوص المقدسة التي كانت قدوة لأساليب الكلام العربي بعدها، لكن العرب الأوائل غلّبوا كلمة اللغة حتى جاء الأواخر فزهوا بهذه التسمية، وساروا على غرار الأقدمين. ومن الأمثلة على هذا استخدام (جمال الدين ابن مكرم الإفريقي) واضع المعلمة اللغوية الكبرى

كعنوان لهذه المعلمة (لسان العرب) ولم يسمِّها (لغة العرب).

وأطلعنا د. المحاسني من خلال دراسته القيمة في هذا الكتاب على آراء اللغويين العرب في اللغة العربية، ومنهم ابن فارس وابن جني والسيوطي.

وبحث في فصل آخر في علم الأصوات اللغوية، وخصص الفصل الخامس للحديث عن اللغة العربية واللهجات، فبدأ بالبحث حول أصول اللغة العربية، ووجد أن دراسة اللهجات العربية كمدخل لدراسة أصول اللغة العربية، كما أن دراسة اللغات السامية بصفة عامة في رأيه تعيننا على أن نضع اللغة العربية في مكانتها بين أخواتها اللغات السامية، والمقارنة بين اللغات أيضاً عون كبير لإظهار مزايا كل لغة على حدة وبالنسبة إلى الأخرى، وكذلك فإن معاناة البحث اللغوي بالمقارنة ما بين اللغات هي أن يتوصل الباحث إلى تحديد الصلات بين اللغات وتوضيح العوامل المشتركة فيها.

ويشمل بحث د. المحاسني حول اللغات السامية تقسيم هذه اللغات وتفرعها وخواصها، وأورد آراء العلماء في هذا، ومنهم على سبيل المثال المستشرق الإيطالي (غويدي)، وكان أستاذاً للأدب العربي في الجامعة المصرية أوائل القرن العشرين، وفند آراء هذا المستشرق.

ويمضي د. المحاسني في دراسته للغة العربية وتاريخها فيتحدث عن دراسة مفردات اللغة وعباراتها في كلام الجاهلية من خلال دراسة لبعض النصوص الشعرية، ويبين قيمة الدراسة في هذه النصوص من الأدب الجاهلي لبيان علاقتها بلغة قريش ونقتبس من كتابه العبارات التالية في هذا الصدد:

«وختام هذه الدراسة المجملة للغة الجاهلية ولغة قريش تقتضي أن أتساءل: أكانت لغة قريش قد سادت في عهد معين أم إنها وجدت وهي سائدة من غير أن نعرف السبيل الصحيح العلمي لسيادتها؟

والذي أراه أن لغة قريش قد ظهرت سائدة قبيل الإسلام، ولما نزل القرآن الكريم وأقبل العرب عليه جعل (هذا الكوكب اللغوي الأعظم) يشع في

كل الجهات فعمت لغة قريش أرجاء العرب جميعاً وجعلت تشيع في كل مظاهر التعبير، فوجدناها من شرفات الشعر في الإسلام ومنسابة في لغة المحادثة ودارجة في مجالس الأدب، وحين جاء العصر العباسي الأول وظهر الشعر مجموعاً في دواوين أملاهـا الرواة والجامعـون واللغويون كما يحدِّثنا بذلك صاحب (الفهرست) وغيره، فنجد عالماً قرشياً يطلع علينا في لغته المنبثقة في كل نواحي العبارة، وإذا لهجات العرب وسـائر لغاتها تنحسر لتظل في بطون الكتب آثاراً، ويظل منها القليل شائعاً على أطراف الألسنة، وهو لم يثبت على توالي الزمان أن أتى عليه الترك والإهمال وبات تاريخاً لغويـاً ضاع أصحابه بين سمع الأرض وبصرها، وإذا لغة قريـش تملأ الدنيـا ولاتزال تملأها، وما نحن اليوم بمتكلمين إلا لغة قريش».



٢ ـ ديوان المحاسني

ذكرنا في الفصل الأول أن المحاسني بدأ ينظم الشعر وهو طالب في المدرسة التجهيزية، ثم في كلية الحقوق. ولقد رافقه نظم الشعر في حياته كلها، ذلك لأن الشعر من وجه من وجوهه نفثة الرجل الكريم في دياجير الدهر.

كان المحاسني ينظم القصيدة أحياناً في لحظات سواء أكان وحده في لحظات التأمل والتفكير في غرفة مكتبته، أو عندما يكون في مناسبة أو حفلة أو محاضرة، فتجده يرتجل الشعر دون سابق تهيئة.

والحديث عن شعر المحاسني يحتاج منا لصفحات عديدة، وخير ما يعطي صورة عن شعره هو أن نقدّم نماذج منها، فما راءٍ كمن سمعا.

سارة المتهجّدة[1]

كَـمْ سَـألـتُ النشـورَ كيـفَ يحيـنُ ... واستـدارتْ علـى السـؤالِ الظنـونُ
أنـا أوصيـتُ أن أبيـتَ علـى قـربك ... فـي ضجعـةٍ ثـراهـا حنـونُ
سفـحُ قيسـونَ يحتـويـكِ ومَـنْ لـي ... ببقـاءِ الجبـالِ حيـثُ تكـونُ
يـومَ يغـدو مثـلَ الهبـاءِ نثيـراً ... حينمـا جُـنَّ فـي الـوجـودِ الجُنـونُ
كيـفَ ألقـاكِ سـاعـةَ الحشـرِ؟ أيّـانَ ... علـى زَحمـةِ المَصيـرِ العُيـونُ
أنتِ سَبَحْتِ في الصَّباحِ وفي اللَّيـ ... ـلِ بعمـر قـد بـاكَـرَتْـه المنـونُ
وهـديـلُ الحمـامِ فـي طلعـةِ الفجـ ... ـرِ علـى صـوتِـكِ الحبيـبِ أنيـنُ
ملءُ سمعي وطيُّ روحي أناجيكِ ... وتحـويـكِ فـي خيـالـي الجفـونُ
كـانَ لـي بـاسِمِـكِ السـرورُ ولمّـا ... غبـتِ غـاضـتْ أسبـابُـه والمَعِيـنُ
دَأْبُكِ الصَّمْتُ لا تردينَ يا صورةَ ... أمـي والـوجـهُ منـكِ حَـزيـنُ
يـا غـذاءَ الأشـواقِ فـي كـلِّ يـومٍ ... أنـسَ ليلـي وحَسْـرَتـي واللحـونُ
مـا شَبِعْنَـا مـن الحيـاةِ ولا اللقيـا ... أَمِـنْ أولِ الطَّـريـقِ نبيـنُ
كُنْـتُ ألقـاكِ فـي السمـاءِ وفـي الأر ... ضِ وفي البحرِ حيثُ تَهْوِي السَّفينُ
ومـعَ الـرِّيـحِ إذ يَنُـوحُ بمَسْـرَاهـا ... رسيـسٌ ينتـابُنِـي مَحْـزُونُ
كتـراتيـلِ مـاريـا أو كـأذكـارِ ذوي ... الصـوفِ حيـن يعلـو الـرنيـنُ
أنـا جَسَّـدْتُهـا يـدي مـن يـديهـا ... وبعينـي مـن عينِهـا تكـويـنُ

---

(١) سارة هي أم الدكتور زكي المحاسني، توفيت بدمشق سنة ١٩٣٣م، وكان لايزال في الثانية والعشرين من عمره، ونُشرت القصيدة في مجلة (الأديب) ببيروت.

وبصـوتـي صَـدى التـلاواتِ منهـا   إنَّ قـرآنهـا القـريـنَ الأميـنُ
فـوق أوراقِـهِ أقبِّـلُ بصمـات   لإبهـامهـا ودمعـي سخيـنُ
لـو يصحُّ الحلولُ خـاطبتُ نفسي   فـأجـابـتْ عنهـا وراحـتْ تبيـنُ
كلَّمـا ثـوَّبَ المـؤذِّنُ فـي الفجـرِ   تمـادى بيـنَ الأذانِ السكـونُ
فكـأنَّمـا الأرواحُ تُصْغِـي إليـه   فـوقَ أبـراجِهَـا عليهـا الشجـونُ
أيـنَ يـا أُمُّ روحُـكِ الليـل يسـري   أيـن فـي الجـو بُـرجُها الميمـونُ
أطبـقَ النجـمُ جفنَـه وسُهـادي   مستبـدٌّ ودَمْـعُ روحـي هتـونُ

* * *

في ذكرى يوم الشهداء

هاتِ الأزاهيرَ وانثرْها على الشهدا   واجعلْ دموعَ الأحبا فوقهنَّ ندا
الدمعُ للنوحِ، لا تبخَلْ بساكبِه   فربّما عبرة تشفِي ليَ الكبدا
قبلي امرؤُ القيسِ داوى وَجْدَهُ بِبُكا   وفوقَ أطلالِه قبلَ الرَّحيلِ شَدَا
والذكرياتُ لقد تنسى حوادثُها   وتستحيلُ خيالاً في الشفوفِ بدا
إلا التي هي مِنْ جرحٍ يُجدِّدُه   كَرُّ السِّنين فلا تُنسى إذن أبدا
كقِصَّةِ العُمْرِ أروي يومَ مقتلِه   راحَ الرعيلُ بها في حَتْفِهِ بَدَدَا
كانوا البناءَ عقولاً مثلَ كوكبةٍ   مِنَ النُّجومِ وكانَ الوَعْيُ متَّقدا
أظلَّهُم أعهدٌ للبغي كانَ بها   حكمُ الطُّغاةِ يُديرُ الكأسَ مِلءَ رَدَى
قالوا، وأصفادُهم تجتاحُ أرجلَهُم: نحنُ الأُباةُ فما ذُقنا بكم رَغَدا
إنّا لمِنْ مَعْشَرِ الأحرارِ، ما خشيتْ   آمالُنا في الوغى مِمَّنْ بَغَى وَعَدَا
فَرِيْعَ طاغيهم في الشامِ واندفعتْ   جنودُه تأخذُ الأحرارَ أَخْذَ عِدَى
يا للمشانقِ قد صُفَّتْ قَوائمُها   في ساعةٍ باتَ فيها الشَّرقُ مُرتَعِدا
هاجتْ بها الشَّامُ والطُّغيانُ مُبْتَسِمٌ   كأنَّهُ الذِّئبُ غالَ الأهلَ والولدا
أينَ العيونُ وراءَ الغَيْبِ تنظرُنا   في زحمةٍ مجدُها سَدَّ الدُّنَى عَدَدَا
لنَا على البحرِ أسطولٌ نجرْجِره   وفي السَّما طائراتٌ تبلغُ الأمَدا
وجيشُنَا طَحِمِ الآفاقَ عسكَرُه   بحوفةٍ تتنزَّى للعراكِ غَدَا
يا فتيةَ الشامِ من مصرٍ أساجلُكُم   شعرَ الوفاءِ، وهذا النيلُ من بردى
على ضحاياكمُ رفَّتْ خواطرُنا   من فيضِ أدمُعِنا في محفلِ الشُّهَدا

* * *

البشر والقمر

هبطَ النَّسْرُ على سطحِ القمرْ ... آيةُ الإنسانِ مُذْ عصرِ الحَجَرْ
خلٍّ أسبابَ الدُّنى موصولةً ... بعدَ أنْ باتَتْ بزيغٍ مستمرّ
ملأَ البدرُ الليالي فتنةً ... يغزِلُ النُّورَ وبالحُسْنِ بَدَرْ
بَاسمَ الوجهِ على مَرِّ الوَفَا ... غابَ عنْ أحبابِهِ ثمَّ حَضَرْ
دَارَ في الأُفْقِ على بُعْدِ المَدَى ... يَنظمُ الأيامَ في الشهرِ الأغرّ
هوَ ميقاتٌ لنا في عَيشِنا ... أبدعَتْهُ يدُ ربٍّ مقتدرْ
فلَهُ في البحرِ سبحٌ دائمٌ ... حينَ مدَّ المدُّ والجَزْرُ انجزَرْ
ونَدامى الشِّعرِ باتُوا طُلَّعاً ... في الدُّجى نحوَ حبيبٍ قدْ شَعَرْ
والأغاني ملءُ أسماعِ المَلا ... بالتحاسينِ وبالذِّكرِ العَطِرْ
لَو جمعنَا كلَّ ما قالُوه في ... طَلعَةِ البَدرِ لهالَتْنا الصُّورْ
غَننيُّ اللحنَ على أضوائِهِ ... في ليالي الشَّوقِ إنْ حِبٌّ غَدَرْ
وجهُهُ منْ وجهِهِ مُسْتَمْتِعٌ ... نورُه من نورِه صفَّ الطّرَرْ
هادِئاً كانَ على آمادِهِ ... ومِنَ الودِّ وبالنَّجوى سَفَرْ
غيرَ أنَّ العلمَ في بحرانِهِ ... هبَّ يلقاهُ كما كانَ القَدَرْ
فعلى الإنسانِ آفاقُ الدُّنَى ... يمخُرُ الجَوَّ وبالنَّارِ هَدَرْ
صعَدَ الأجواءَ في منطلقٍ ... بادئاً عصراً زهتْ فيهِ العُصُرْ
حطَّ فوقَ البدرِ في مركبةٍ ... عَجِبَ المرءُ لها ثمَّ انبَهَرْ
ويكَ يا إنسانُ لا ماءَ بِهِ ... لا ولا ريحَ بهفهافٍ تَمُرْ
وبِهِ الحَرُّ جحيمٌ هائجٌ ... يتنزَّى الخطوُ فيهِ بِشَرَرْ
قلتُ للآدابِ يكفيكِ الهوى ... من بعيدٍ ويلاقيكَ الحَذَرْ
حانَ مجدُ العلمِ في إبداعِهِ ... وهو موثوقٌ بتسديدِ النَّظَرْ

* * *

يـــا بَنـــي الـــدُّنيـــا وذي بـــادرةٍ دلَّــتِ الـــدهــرَ علـــى فـــوزِ البَشَـــرْ
رُبَّ حسنـــاءَ تمنَّـــتْ عِقْـــدَهَـــا جـــوهــراً يُـــزري بـــأشتـــاتِ الـــدُّرَرْ
تستـــزيـــدُ الـــدَّلَّ فـــي زينتهـــا بحصًـــى حـــازوه مِـــنْ سَطْـــحِ القَمَـــرْ

شعبان ١٣٨٩هـ

* * *

ربيعٌ لا يفنى وأزاهيرُ لا تبلى

هذه آخر أبيات من الشعر للمحاسني[1]، وكأنّه يرثي بها نفسَه كما قالت زوجه الأديبة وداد سكاكيني، فقد أملاها على ابنته وهو على فراش المرض.

دلـفَ الـربيـعُ ولسـتُ أنسـاهُ ... قـد هيَّـجَ الأرواحَ ذكـراهُ
فكـأنَّ عُبَّـاداً منـاسكُهـا ... حـانـتْ وللـوجـدانِ نجـواهُ
سـاءلـتُ إلهـامـي وخـاطِـرَتـي ... وأنـا ضجيـعٌ كيـفَ ألقـاهُ
يكفِـي الخيـالُ علـى مَنَـازِعِـه ... والـوهـمُ طـوَّافٌ بمغنـاهُ
فتملمـلَ الجسـمُ الـذي شقيـتْ ... أعضـاؤهُ كحبيـس دنيـاهُ
أنـا كنـتُ أجـيءُ فـي مـواسِمِـهِ ... أبغـي المـدينـةَ وهـي مثـواهُ
فتـرفُّ أجنحـةٌ علـى روحـي ... ويجـدِّدُ العـزمـاتِ مغنـاهُ
بـأبـي رسـولُ اللهِ قـد طلعـتْ ... ببشـائـرِ ذكـراكَ عليـاهُ

* * *

فلسفـتُ أشعـاري وقلـتُ لهـا ... خَلِّـي الهَـوَى يُـدْنِـي سجـايـاهُ
أنـا هـائـمٌ بـاللهِ أنشـدُهُ ... بمحمَّـدٍ وعميـمِ ملقـاهُ
يـا وحـدةً قـد أُلِّفَـتْ بِـدَمـي ... وشعـورُ عمـري منـذُ أهـواهُ
مُـرِّي علـى دارِ الـرَّسـولِ فلـي ... فيهـا ودائـعُ كُلُّهـا جـاهُ

* * *

---

(١) نُشرت في مجلة (قافلة الزيت)، الظهران، المملكة العربية السعودية، ١٩٧٢م.

أربيــعُ مــا عطــري ولا زهــري ... لــولا مُحَمَّــدُ يــومَ أرضـــاهُ
فخُــذْ لــي النفحــاتِ مِــنْ بَــرَدَى ... وانشــرْ هَــواهــا عنــدَ ريَّــاهُ
صلَّــى الإلٰــهُ عليــهِ مــا طَلَعَــتْ ... شَمْــسُ الــرَّبيــعِ وطــابَ نُعمــاهُ

* * *

نماذج من ملاحم المحاسني:

عمر بن الخطاب[1]

آآلُ عـديٍّ فـي قـريـشٍ تُسـامِـرُ؟ وجُنْحُ الـدُّجى فـوقَ النَّدِيِّ سـتائرُ
وقـومٌ تكَمَّـوا بـالحـديـدِ عُيُـونَهـم لأذؤبِ فتْـكٍ تـرتمـي وتحـاذِرُ
تـوسَّطَهـم نَـدْبٌ طُـوالٌ مُفَـوَّهٌ يـديـرُ عليهـم رأيـهُ ويُشـاورُ
يُعِـدُّ لمَغْـداه وسيلـةَ بطشـةٍ تـدوِّي عليهـا فـي ذراه العشـائـرُ
فهل عُمَرُ الخطابُ يمشِي بدَعْوةٍ لحربِ رسولِ اللهِ والبغيُ ظاهِرُ؟

* * *

رويدكَ كَمْ قضَّيتَ ليلَكَ هاجِساً وفيكَ خصامُ القلبِ والعقْلِ دائرُ
تصدُّك حيناً عُصبةٌ جاهليّةٌ لها في ضلالِ العُنْجُهيَّةِ زاجِرُ
وتهديك روحٌ نَضَّرَ الطُّهرُ وَجْدَها إلى مسمع القرآنِ والصوتُ هادِرُ
أبوكَ مِنَ الأبطالِ علَّمكَ الوغَى ومِنْ جَدِّكَ القاضي (نُفَيْلٍ) بوادِرُ

* * *

وراحَ رسولُ اللهِ يفْكُرُ في الدُّجَى بشَهْمٍ بهِ الدِّينُ الحنيفُ يُؤازَرُ
تمرَّدَ، حتَّى الصَّخرُ لانَ، وما انثَنَى وباتَ بعدوانِ الرَّسولِ يُجاهِرُ
وجاءَ أختَه تتلو مِنَ الآي سُورةً فجَندَلَها فاسْتَعْصَمَتْ لا تُغادِرُ
وقالتْ: عدوَّ اللهِ أنتَ، تلومُني على الهُدَى؟ يا من ضَلَّلَته الكوافِرُ

---

(١) نُشرت في مجلة (قافلة الزيت)، الظهران، المملكة العربية السعودية، جمادى الأولى)، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، سبتمبر ـ أكتوبر.

فحَطَّ على تِلْكَ الصَّحيفةِ عيْنَهُ ... وَهَبَّ إلى جَمْعِ الرَّسولِ يُبادِرُ
إليكَ رسولَ اللهِ جئتُكَ مُسلماً ... أنِرْ بصري يا مَنْ فِدَاهُ البَصائِرُ
فَكَبَّرَ للهِ الرسولُ بسجدَةٍ ... هي الرَّمْزُ يُزجيهِ إلى اللهِ شَاكِرُ
لقدْ نُصِرَ الدِّينُ الحَنيفُ وأصبحَتْ ... لقوَّتِهِ تعنُو العُتَاةُ الجبَابِرُ
وردَّدَ في جوزِ الفضاءِ محمّدٌ: ... «أيا عبقريَّ الفَرْيِ» أنتَ المُناصِرُ

* * *

أيا عُمَرَ الإسلامِ كنتَ حمامةً ... تنوحُ وفيكَ الليثُ بالبأسِ خَادِرُ
وزَنْدُك مشدودٌ على سَوطِ دِرَّةٍ ... لتعلو بها من يَفْتَري ويكابِرُ
وعدلُك، ويحَ العدلِ، إنْ جاءَ مسمِحاً ... وأنتَ له في الدَّهْرِ حامٍ وناصِرُ
تعاورَ فيك العَدْلُ والبأسُ والنَّدَى ... كما زحَمَت ساحَ العِراكِ المغاوِرُ
فيا أُمّةً فيك التقَتْ بوحيدِها ... لتنصرَ ديناً تفتَدِيْهِ القَسَاوِرُ
أأسطورةً قد كنتَ في الرُّوحِ والحِجَى ... حقيقتُها ذابَتْ عليْها الأساطِرُ
وفيكَ على حفظِ المروءةِ غَيْرَةٌ ... تسامَتْ بعَليَاهَا النِّساءُ الغرائِرُ
فديتُكَ والتمثيلُ عانٍ وصُورَتي ... مصغَّرةٌ والحمدُ فيك مُجَاهِرُ
نشرتَ على الإسلام رُشدَ خلافةٍ ... وجُلْتَ بجوفِ الليل والفقرُ سَاهِرُ
فأُسمِعْتَ شكوى أيِّمٍ يَعْرُبِيَّةٍ ... وصِبْيَتُها في الجوعِ صَرْعَى ضَوَامِرُ
تناديك للجُلّى وتجهلُ مَنْ تَرَى ... فأنتَ لديها مُذنبٌ مُتفاخِرُ
عَلَى قِدْرِها الأحجارُ تغلي تَخَادُعاً ... وهل تُنْضِجُ الأحجَارَ قِدْرٌ وجامِرُ؟
فقلتَ: اصْفحي عن ذنبِ مَنْ عندَ ربِّه ... سَيَلْقَى عذاباً ما لهُ الحَشْرَ غَافِرُ
وعُدْتَ إليها تحمِلُ البُرَّ جاهِداً ... وأكْبَبْتَ تُصْلِي النّارَ والنَّفخُ سَاجِرُ
أيا جابرَ القَلْبِ الكَسِيْرِ لعاثِرٍ ... تُفَدِّيكَ في اللهِ القلوبُ العواثِرُ

* * *

ويوم أتى الروميُّ فيهِ مُلاقياً ... لحشدِكَ، لكنْ خيَّبَتْهُ المَظَاهِرُ
خليفتُكُم، إنِّي أتيتُ مسلِّماً ... عليهِ وعندي في لِقَاهُ بَشائِرُ
خُذوني إلى قصرٍ حواهُ مُمَرَّدٌ ... ليَبْهَرَ عيني عرشُهُ والجواهِرُ

فقـالـوا: تعـالَ انظـرْ إليـهِ مُمَـدَّداً ... بقَيلُـولـةٍ مـا نَـامَ فيهـا مُحـاذِرُ
وسـادَتُـهُ قَبْـرٌ لـدى ظِـلِّ نَخْلـةٍ ... وليـسَ عليـهِ مِـنْ حَـريـرٍ دَوائِـرُ
فقالَ: أقامَ العدلَ صاحبُ أمرِكُمْ ... فنامَ، وقـدْ نـامـتْ لَـديـهِ الكَـواسِـرُ

* * *

ومـرَّ بليـلٍ فـاحمـيٌّ مُـوَسـوِسٍ ... وأسمـعَ أشعـاراً لظـاهـا المشـاعِـرُ
تناغَتْ بها غَيْدَاءُ في لوعةِ الهَوَى ... بنَصـرِ بـنِ حجّـاجٍ وفيـهِ الأواصـرُ
أيُمسي فتًى مِنْ دأبِهِ الجَهْلُ والخَنَا ... وتسقُـطُ فـي أحبُـولتَيْـهِ الـزَّواهـرُ؟
إلى البصرةِ المَنْفَى فما مِنْ جَريرةٍ ... أمـرُ إذا عِـرْضٌ تـولاَّهُ فـاجِـرُ

* * *

أيـا عُمَـرَ الأعمـارِ عَـدْلُـكَ واحِـدٌ ... لأكبـرَ سـاواهُ البُغـاةُ الأصـاغِـرُ
وبابنِكَ في الذّنبِ المُقارفِ شاهِدٌ ... عليـكَ بـأنَّ العَـدْلَ فيـكَ مُفَـاخِـرُ
أقمـتَ عليـهِ الحَـدَّ لا حـدَّه انثنـى ... لِقُـربَـى ولا حنَّـتْ عليـهِ الـزَّواجِـرُ
ووافـاكَ صُعْلُـوكٌ تهتّـمَ شِـدْقُـهُ ... وضَـاربُـهُ المُختـالُ عـاتٍ وآمـرُ
فقلـتَ: قِفـا جنبـاً لجنْـبٍ ففِـدْيـةٌ ... قِصـاصٌ بضـربٍ مثلُـه أو معـاذِرُ
تكبَّـرَ عنهـا عِـزَّةً بمـآثـمٍ ... (جُبيلَـةُ) واستشـرى عليـكَ يُـؤامِـرُ
وغـادرَ للـرُّومِ العـداةِ بجَمْعِـهِ ... فيـا خِسَّـةَ الخَـوَّانِ يـومَ يُغَـادرُ
وبـاتَ بقسطنطينـةٍ يَكْـرَعُ الـرَّدَى ... مـع الكـأسِ خُسْـرانـاً وظـلَّ يقـامِـرُ
إلى أنْ أتى مِنْ صَوبِ (حسّانَ) نَحْوَهُ ... نجـيٌّ يُـدَانـي عـودَهُ ويحـاوِرُ
فحـنَّ إلـى البطحـاءِ وانْهـالَ نـادِمـاً ... ومِنْ دَمْعِهِ فاضَتْ عليها الهوامِرُ

* * *

ويـا قـولـةً هـزَّتْ عُـروشـاً وأمّـةً ... أتيـتَ بِهَـا والقَـوْلُ مِـنْ فِيْـكَ آسِـرُ
غدتْ شِرعةَ الدُّنيا على الحقِّ والفِدَا ... يُـرَدِّدُهـا فينـا خطيـبٌ وشـاعِـرُ
تقولُ: متى استعبدْتُمُ النّاسَ ويلكُم ... وقـد وَلَـدَتْهُـم لـلإخَـاءِ الحـرائِـرُ»

* * *

ويا وِقفةً في مَنْبَرِ المَسْجِدِ الذي تراءَتْ على علياهُ حَرْبٌ وغادِرُ
فَصِحتَ، ونورُ اللهِ في العينِ مُشْرِقٌ كأنَّكَ في قَلْبِ المَعَارِكِ حَاضِرُ:
(أساريةُ) استعصمْ وبالجَبَلِ استعِذْ، فيا لنداءٍ ردَّدتْهُ المنابِرُ
لقد حلفَ الأبطالُ أنَّ قريعَهُمْ ملا سَمْعَهُ ذاك الندا المتواتِرُ
وأزجيتَ للفتحِ الكبيرِ اعتزامةً فمِنْ صَوْبِ آمادِ الشآم المَعَابِرُ
(معاويةٌ) فيها يقيمُ فخارَها لمَجدٍ به التاريخُ زاهٍ وعاطِرُ
ألا يا(ابن عوفٍ) قم بنا نحوَ جلّقٍ أميّةُ فيها أطرفتها المقاصِرُ
وضمّتْهُمَا شوقاً دمشقُ وأهلُها صحابةُ غسّانٍ وزينَتْ منائِرُ
فمُرَّا على صَفٍّ مِنَ الجُنْدِ حَاشِدٍ لأبواقِهِ في مرتعِ الجوِّ زامِرُ
(مُعاوي) هذا منكَ، والظُّلمُ جاثِمٌ ببابِكَ، قد هانتْ عليك الجَرَائِرُ
فِداك أميرَ المؤمنين دِرايةٌ فإنّا جِوارَ الرُّومِ والقومُ ماكِرُ
فلابدَّ من راياتِ جيشٍ على الحِمَى ومن زحمة المُرَّانِ والخطبُ كاشِرُ

* * *

أفاتحَ مصرٍ ما أردتَ توسُّعاً ولكنْ حِمى للمسلمينَ تُبادرُ
ولا كان لابنِ العاصِ داهيةِ الملا بسُلطانِهِ تلك الضفافُ الزَّواخِرُ
ولكنّ للإسلامِ نورُ رسالةٍ حملتَ تُقاها والعُداةُ سواهِرُ
مشى زحفُها في البيدِ والبحرِ وانبرى على مطمحِ الآفاقِ والفتحُ باهِرُ
تساوى بنو الإنسانِ تحتَ لوائِها وجادتْهمُ الدُّنيا وعَفَّتْ مآزِرُ
أقبِّل في جنبِ (البقيع) مراقِداً وأسفَحُ دَمْعي حيثُ تَهْفُو الخَواطِرُ
سلاماً على ذكرَى المروءةِ والعُلى وقِسطاسِ عدلٍ ما لهُ الدَّهرَ ساتِرُ
تلألأ تحتَ الشَّمسِ سَيفاً وكِفّةً على رمزِهِ القدسيِّ تُثْنَى البَواتِرُ
أتَى الهُرْمُزانُ الفارسيُّ بغَدْرَةٍ وأنفَذَها المُغْتَالُ والمكرُ جائِرُ
غُلامٌ تجافاهُ (المغيرةُ) فارِسٌ رَعَتْهُ، وقد هانَتْ عليهِ الكبائِرُ
فجاءَ بها في خِنْجَرٍ حتفُ طعنِهِ على جانِبَي حَدٌّ بهِ السمُّ عاقِرُ
وغيَّبَهُ في جَنْبِ أروعَ جاهدٍ فيا عُمَرَ الإسلامِ تبكيكَ عامِرُ

شهيداً قضيتَ العهدَ والوجهُ ساجِدٌ إلــى الله شُهّــاداً عليــكَ المــآثــرُ
أيُضحي على الإسلامِ ظلُّ غَمامةٍ بُعيـدَكَ مُـذْ حَلَّـتْ عليـهِ المَنـاجِـرُ
إلى أن لقيتَ السّلمَ والعِزَّ والجَدَى بِـدَهْـركَ هـذا، وازدَهَتْكَ المَصَـائـرُ

* * *

يوم اليرموك[1]

يقع يوم اليرموك في ١٢ رجب ١٥ هجرية/ ٢٠ أغسطس ٦٣٦ م.

فـديتُـكَ هـل تـرى خفـقَ البنـودِ ... هنـالـكَ وهـي تـدنُـو مِـنْ بعيـدِ
مـنَ الصحـراءِ حثحثَـتِ المطـايـا ... عِطـاشـاً هـائمـاتٍ بـالـورودِ
عليهـا مِـنْ تجـافيـفِ البَـوادي ... خـلاقُ الـرَّمـلِ فـي تلـكَ العُهـودِ
وللـرَّمـلِ النَّقـيِّ صفـاتُ روحٍ ... تجلَّـتْ فـي العـروبـةِ والجُـدودِ
معلمـةُ العِـرابِ أيـا رِمـالاً ... لهـا حـرّيـةُ العيـشِ الفـريـدِ
بعثْـتِ حِمـى العِـراكِ رجـالَ حـربٍ ... مُنـاهُـمْ رغبـةَ اللهـفِ الشهيـدِ
إذا رقـدوا فـأعينهـمُ نيـامٌ ... وأيقـاظُ العـزائـمِ والجهـودِ
لهـم فـي السِّلـمِ أخـلاقُ البـرايـا ... وقـدْ حَسُنَـتْ علـى حُلْـمٍ وجـودِ
وفـي الهيجـا ضـراغمـةٌ أبـاةٌ ... أرادوا المَجْـدَ بـالـدمِ والحَـديـدِ
تكـادُ بهـم أسـاطيـرُ الليـالـي ... تعجَّـبُ مـن تهـاويـلِ الجنـودِ
أمـا قـذفـوا مـن الصحـراءِ تُطْـوَى ... بهـم أرضٌ علـى الأمـلِ الشَّـريـدِ؟
يحثُّـونَ المطـيَّ علـى شعـاعٍ ... مِـنَ النَّجـمِ الخفـيِّ مـدى السهـودِ
تنـاءَتْ دارهُـمْ فسَعَـوا إليهـا ... حنـانـاً بـالخيـالِ إلـى الـوليـدِ
وللخُـوْدِ التـي مَسَحَـتْ دُمُـوعـاً ... علـى التـوديـعِ فـي الحُـزْنِ المُبيـدِ
فيـا سِفْـرَ الجهـادِ أراكَ عِيْـداً ... لـدى الأبطـالِ فـي اليـومِ السعيـدِ
جـوانحُهُـم مليئـاتٌ بتقـوى ... كـأنَّ بهـا مسـاجـدُ للسجـودِ

---

(١) نشرت في (قافلة الزيت)، الظهران بالمملكة العربية السعودية، ع(سبتمبر - أكتوبر)، ١٩٦٨م.

وأصواتٌ بتكبيرٍ تعالى ... تضاعفُه الجبالُ مدى الردودِ
وللإيمانِ سِرٌّ هدًى ونصرٍ ... فلم يحفَلْ بجَبَّارٍ عنيدِ
يسوقُ الجحفلَ الجرَّارَ قُدماً ... إلى الجنَّاتِ في الحَتْفِ الرَّغيدِ
كأنِّي ناظرٌ رُمْحاً بصَدْرٍ ... يجرِّرُهُ طعِيْنٌ كالفهودِ
وفي يدِهِ الحسامُ يطيحُ رأساً ... كأنَّ دماءَه دَفْقُ الصَّديدِ
أراويةُ الزَّمانِ ألا أعيدي ... بسمعِ الدَّهرِ معركةَ الأسودِ
على الأردنِّ نهرٌ مِنْ تميمٍ ... يتيهُ بطارفٍ بعدَ التليدِ
أصيري الحادثاتِ رواةَ دهرٍ ... وقُصِّي الحربَ في اليومِ المجيدِ
أرى (اليرموكَ) نهراً ليس يَجْرِي ... سِوى بدمٍ مِنَ الجيشِ الطَّريدِ
تجمَّعَ حولَ ضفَّتِهِ زحوفٌ ... من الرومانِ تدلفُ بالحديدِ
و(هندٌ بنتُ عتبةَ) في رعيلٍ ... منَ الأبطالِ مقبلة بغيدِ
أتَتْ للحربِ في درعٍ وسيفٍ ... لتحتضنَ المنيّةَ في المهودِ
ورفقتُها نساءٌ عابداتٌ ... حضرْنَ بلا دروعٍ أو زرودِ
بأيديها الحجارةُ ماثلاتٌ ... لتضربَ في الجباهِ وفي الخُدودِ
إذا فرَّ الجبانُ ردَدْنَ فيهِ ... شُجاعاً أو كشيطانٍ مَريدِ
وبنتُ (الحارثِ بنِ هشام) كانَتْ ... لخلاّتِ الوقيعةِ كالسدودِ
وقد برزَ الحِسَانُ مزغرداتٍ ... يهجْنَ الجيشَ للنصرِ الوطيدِ
وغنينَ القتال على البَوادي ... ينابيعَ الدموعِ بلا سدودِ
أ(أمُّ حكيمَ) عادتْ بالعوادي ... فكيفَ هجرْتِ حاليةَ السُّعودِ
ذكرتُ بكِ الفوارسَ منْ قريشٍ ... ومن أوسٍ وخزرجَ في حشودِ
تزاحمُ للطِّعانِ وللتَّلاقي ... وجيشُ الرُّومِ بالعزِّ المشيدِ
وراحَ (هِرَقْلُ) يسألْ قبلَ حَرْبٍ ... عنِ العرباءِ في الوصفِ المُفيْدِ
فقيلَ لهُ همُ قومٌ أباةٌ ... بواحدِهم مقارعةُ العديدِ
إذا كرُّوا حسِبْتَ الأرضَ تهوي ... وإنْ بَرزوا فحتْفٌ في صعودِ
وإنْ يَدْعُ المؤذِّنُ في صلاةٍ ... أراحوا الحَرْبَ للخصمِ العنيدِ

نهلـتَ (أبـا عبيـدةَ) مـن جنـانٍ ... صبـوتَ لهـا علـى طَيْـفِ الخلـودِ
فقُـذْتَ عـرمـرمـاً يجـرِي ألـوفـاً ... يصيحُ لدى الفِدَا: يا نَفْسُ جودي
تلقَّاهـم (هـرقـلُ) بضعـفِ ضعـفٍ ... ومـا شِـرْكٌ كـإيمـانٍ سـديـدِ
علـى (اليـرمـوك) حمحمـةُ السَّرايا ... بمـوسيقـى المـلاحِـمِ كـالـرُّعـودِ
ولحـنُ الحـربِ فـي بـوقٍ وقَـرْعٍ ... تلمَّـسَ مـن بـزنطـةَ كـلَّ جيـدِ
رأيتُ (الأشعثَ بن القَيْسِ) يجري ... بملجمـةٍ تتيـهُ علـى المُجُـودِ
فيا ساحاً على (اليرموكِ) قُولي ... ووصفُـكِ فـي مغـازينَـا أعيـدي
إذا خَـدِرَتْ بنـا الأعصـابُ يـومـاً ... وجـدنَـا العـزمَ يحيـا مـنْ جـديـدِ
تعـاقبَـتِ الحـروبُ علـى فتـوحٍ ... لقـدْ نُسِجَـتْ بـداميـةِ البـرودِ
أ(خـالـدُ) كنـتَ إمـداداً ورِفـداً ... لجيـشٍ فـي الشـآمِ بـلا سنـودِ
ولمَّـا أنْ حللـتَ غـلا وأرغَـى ... وصلصلـت الـزمـازمَ فـي البنـودِ
خطبْـتَ فهجـتَ كـلَّ دمٍ وسيـفٍ ... وأخـرجـتَ القُلـوبِ مـنَ الجلـودِ
وحمحمَـتِ العتـاقُ الـدُّهْـمُ سمعـاً ... ولـو فَهِمَـتْ لَـرِيْعَـتْ مـن كَـدِيْـدِ
وعبَّـأتَ الجيـوشَ بخيـرِ حِـذْقٍ ... كـراديسـاً تـزاحِـمُ فـي مـزيـدِ
فخـاضَ بهـا (ابـنُ وقّـاصٍ) بِـزَأرٍ ... يطـاعِـنُ كـلَّ رومـيٍّ جليـدِ
أ(عكـرمـةٌ مـعَ القَعْقَـاعِ) هبَّـا ... بـوقَّـادٍ مـنَ الـرَّجَـزِ العتيـدِ
أراجيـزٌ كمـوسيقـى حـروبٍ ... تـزجُّ الصَّـدْرَ فـي قَـرْعٍ شـديـدِ
تـردِّدُهَـا (بحـورانٍ) جبـالٌ ... علـى (واقـوصـةِ) الـوادي المُبيـدِ
وجَـدَّ الطَّعْـنُ فـي وَهْـمِ المنـايـا ... فبـايـعَ مسلمـوهـا بـالـوريـدِ
وثبَّتَهُـمْ إلـهٌ ذو نبـيٍّ ... أتـاهُ النَّصـرُ فـي غيـرِ الصـدودِ
وجـالَـتْ نسـوةٌ كُـنَّ الشـوادِي ... وكُـنَّ بـلاسِمـاً فـوقَ الضمـودِ
وكـانَـتْ وقعـةً جلَّـتْ وعـزَّتْ ... بنَصْـرِ اللهِ فـي يـومِ الـوعـودِ
تـردى (الـرومُ) فيهـا فـي فِجـاجٍ ... وراحُـوا خـاسئيـن بكـلِّ بيـدِ
علـى (هـركـول) منهـا ذلُّ دَهْـرٍ ... يـرافِقُـهُ إلـى نشـرِ اللحـودِ
ووافـت (خـالـداً) والحـربُ تُزْجِي ... ألـوكـةُ عـزلِـهِ يـومَ الصمـودِ

فكــاتمهــا إلــى أنْ حــانَ نصــرٌ جنــاهُ (أبــو عبيــدةَ) بــالسّـديــدِ

وسلَّمَـــــهُ الإمــــارةَ طـــوعَ رأيٍ أتــاهُ مــن الخليفــةِ بــالـرَّشِيــدِ

(أبـا بكـر) رعيـتَ الحـربَ نـدبـاً أيـا صِـدِّيـقُ مِـنْ نبـعِ المهـودِ

فــإنْ عُمَــرٌ أتــاهــا عِنْـدَ فــوزٍ فقــد لقيَـتْ بـهِ عِـزَّ المُـريـدِ

سلِ الـدُّنيـا (حـذيفـةُ) مـا دهَـاهـا أتسمـعُ مـا يـدوِّي فـي الجـرودِ

لصوتكَ في مدى (اليرموكِ) زَجْلٌ أطـارَ مـن العيـونِ هـوى الهجـودِ

فقـل: يـا مُلْحِمَـاتِ العـربِ رُدِّي إلـى سمـعِ الـزَّمـانِ صـدى نشيـدي

* * *

ومن الطريف أن الشاعر الدكتور صفاء خلوصي[1] بعث إلى صديقه المحاسني بأبيات سمّاها (تحية لديوان المحاسني) قال فيها:

يا ابنَ المجامعِ والمعاهدِ، فخرها ... نافحتَ في أبهائها الأُدباءا
جبلُ (الأولمب)[2] وأنتَ من نزلائه ... جالستَ فيه صفوةً كبراءا
قد حُزْتَ فخراً بالقِران بزوجةٍ[3] ... فاقَتْ بعَذْبِ كلامها البُلغاءا
وسلكتَ دَرْبَ (الأحْمَدَيْنِ)[4] مُحَلِّقاً ... حتّى بلغتَ بشعرِكَ الجَوْزَاءا
ليس الحياةُ سنيَّ عُمْرٍ قَدْ خَلَتْ ... بَلْ في بهاءِ الشِّعْرِ زانَ (بهاءا)[5]
فَبِشِعْرِكُمْ (بردى) يُغرِّدُ مُنشِداً ... و(النِّيلُ) أمسَى صَفْحةً غرّاءا
و(زكيُّ) في عَلْيائِهِ لَهُ مُنْصِتٌ ... يُزجي التَّحايَا بَسْمَةً ودُعَاءا
عَشِقَ (المُقَطَّمَ) والدِّيارَ وأهلَها ... جَبَلَ (المُقَطَّمِ) لا عَدِمْتَ وَفَاءا

* * *

---

(١) الدكتور صفاء خلوصي، باحث وشاعر من العراق، له مؤلفات أدبية عديدة، توفي في أوكسفورد بإنكلترة سنة ١٩٩٥م، فخسرت الحياة الأدبية والثقافية علماً بارزاً.

(٢) جبل الخالدين عند الإغريق.

(٣) هي الفقيدة الراحلة الأديبة وداد سكاكيني.

(٤) الأحمدان: أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، وأحمد شوقي.

(٥) في اللفظة تورية لاسم الشاعر البهاء زهير.

ثالثاً ـ مختارات من المقالات :

١ ـ شيوع اللحن

لم تُنشر

إذا استطعنا أن نتصور فيما وراء الخيال من صدر العصر الأموي أو نعلو به إلى عهد الراشدين لنستمع في أرجاء الجزيرة العربية للغة الفصحى التي كانت مصدراً للغة العرب وبخاصة في دارات قريش حيث كان عبد شمس يتبختر في بطاح مكة مشقشقاً بلسانه، معتزاً بولده ومجده.

في ذلك الحين البعيد كان كلام العرب يتدفق من الألسنة الفصيحة، معرباً لا لحن فيه.

ثم جاء زمن كانت قضية الإعراب فيه من شيوع اللحن حيرت أفكار الباحثين.

فكان من الأوائل من يصدرون بسداد الإعراب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن أبي الأسود الدؤلي، وكان أحدهما بعد الآخر أول أساتذة الإعراب، وحفظ اللغة من اللحن الذي بدأ يظهر، وكان مثل مرض يستهل ثم يندفع صخاباً عارماً، وكانت الاستهلالة في بيت الدؤلي نفسه حين لحنت بنته، فهب مهرولاً إلى علي بن أبي طالب، يقص عليه الأمر الذي راعه وأدهشه في لحن بنته.

تلك كانت البادرة الأولى في مطالع أول لحن في تاريخ الدراسات العربية في قضية الإعراب.

ثم تحدَّرت الأزمان العربية بسيل من اللحن جرف أمامه ألسنة الشعوب

العربية في كل مكان على توالي السنين. وإذا بلاد العرب، بعد أربعة عشر قرناً من منبع لغتها تصبح شتيتة على ألسنة كل شعب من هذه الأمة يتكلم العربية بلهجة تخالف اللهجات في سائر الديار، وإذا نحن العرب في هذا القرن العشرين، لا يكون بيننا التفاهم في لغة إلا بالعربية الفصحى المعربة، التي نشأنا على تعلمها مثلما نتكلم لغة أجنبية، ندرس إعرابها ونتثقف بفصيح كلامها ونحفظ المنثور والمنظوم منها حتى يعلق إعرابها في ألسنتنا، فإذا انقلبنا إلى منازلنا أو رحنا السوق طفقنا نتكلم العامية السخيفة، ويغالب الناس فينا اللحن الذي لا يقوى على إبادته في آثار القلم واللسان إلا الأدباء والكتاب والمدرسون الذين مرنوا على معرفة الكلام المعرب.

ونهضت مشكلات رافقت هذه الظاهرة الوبيلة تمكنت من لغتنا منذ كانت، وكم أشبهها بما يعتري منابت القطن من آفات سنوية تحول دون زروعه وجودة منتوجه، وهي في كل يوم يفكر بأمرها أطباء النبات ليجدوا لآفاتها مبيداً جديداً.

وقد فكر علماء العربية بطرق أشتات يقوِّمون بها الألسنة، وهبت في عصرنا بحوث لها في الجامعات والمؤلفات، وعاش قبلنا مؤلفون عاشوا من أجلها في الأعصر العربية سنين طوالاً، وتركوا عالمنا واللحن ديدن الكلام والأقلام.

ولا يحسبنَّ حاسب أن قضية اللحن التي يشعر بها في عصرنا المجمعيون والفصحاء وحماة اللغة والكتاب والشعراء لم تمر قضيتها المماثلة خلال العصور العربية، فلقد كانت معضلة اللحن وبالاً في كل معهد ومقام، وكان اللاحنون في العصر الأموي هم الطارئين على العربية. وقد سكنوا أمصارها من الموالي والفرس الكثيرين والروم. وكان إذا ند لسان لأمير حاكم أو خليفة في لحن شاع أمره في أرجاء المجالس، وسعى القوم إلى تقويم لسانه وزجره، كالذي اتفق لعبد الملك بن مروان وللحجاج بن يوسف أيضاً حين زل لساناهما بلحن في غفلة من غفلات الكلام وهما على المنابر.

وجاء العصر العباسي فصار اللحن متداولاً وربما ساغ تفكهاً وتظرفاً ونُسجت حوله الأخبار، وقل الاكتراث في مقاومته، واشتد في التأليف بقواعده وإثارة الجدل فيها كالذي امتد زمناً أمره في البصرة والكوفة ثم في بغداد.

ونشأت مدارس للنحو كان عَلَمها الخافق (سِيبَويْه) الفارسيُّ صاحب (الكتاب) الذي يعد معجزة النحو حتى عصرنا الحاضر. وجاء دور الجاحظ، وكان حريصاً على الإعراب، ليظهر بيان العرب في كل موطن من تآليفه البنائية الخالدة. لكنه أحب أن يتظرَّف في قضية اللحن ويظهر لقرائه طرفة من طرائفها فجنح حيناً من قوله إلى استملاح اللحن من النساء يجري على ألسنتهن دلالاً محبباً للرجال، حتى إنَّ شاعراً قال في ذلك:

وحـــديـــثٌ ألـــذُّهُ هُـــوَ ممـــا ... تشتهيـــهِ النفـــوسُ يُـــوزَنُ وَزْنـــا
مَنْطِـقٌ صـــائِـبٌ وتَلْحَـنُ أحيـانـاً ... وخَيْـرُ الحَـدِيْـثِ مـا كـانَ لحْنـا

ولقد وقع الجاحظ في خطأ الفهم لهذا المعنى، وتلك واحدة من زلاته المندورة في حياته الفكرية، فإنه فهم هذين البيتين على أن اللحن خطأُ الإعراب ولم يكن اللحنُ في البيت الثاني إلا تعْمِيَةَ المعنى في كلام مُبَطَّن يجعله لُغزاً خفياً في لفظ ذي معنَيَيْن.

وهذه الظاهرة في شيوع اللحن لدى العرب، لا تشبهها ظاهرة مماثلة لدى الأمم القديمة والحديثة، فإن اللغة الهيللينية التي كان الشعب الإغريقي يتكلم بها، ذهبت وبادت، وقامت مقامها اللغـة اليونانية التي انسـحبت إلى زماننا. واللاتينية لجأت لتأوي إلى الديارات، وحلت مكانها لغات أوروبية مختلفة في كل مكان، تأخذ جذورها ومعانيها الأولى من اليونانية كما تأخذها من اللاتينية ومرت الأمم بتاريخ كلامها دون أن يشب فيها اللحن شبوبه في العربية، وأن يلفت اهتمام اللغويين كما لفته في دنيا العرب.

وفي اللغات الغربية المعاصرة، سلامة تكاد تكون محمودة في مظاهر اللحن، فإن رجل الشارع والبدال والخياط يكلمك بلغة مقبولة. ويدلف إليك

ذو الوظيفة والعامل بلغة مسموعة لا تجد فيها لحناً ظاهراً.

ولست أطلق الحكم في الأرياف الغربية، وإن كان شيوع اللحن فيها محدوداً، لأن الناس جميعاً صدروا عن تعلم اللغة في بيوتهم منذ درجوا من المهود فحفظوا الأناشيد والأغاني المعربة في لغتهم الغربية فشب فتاهم على لسان قويم، ثم تلقته المدرسة بالتعزيز والسداد في التعبير الأدبي ودرك الفصيح وقواعد الإعراب وكذلك كان شأن الفتاة.

وحين هبت في عصرنا الحديث مشكلة اللحن واستمرت إلى أيامنا هذه، دلفت المجامع اللغوية والعلمية إلى جلساتها الطوال ومؤتمراتها المتعاقبة تفكر في تقويم الألسنة والأقلام باستنباط وسيلة مواتية ناجعة لإبادة اللحن أو وقف تياره، فراح فريق يقترح تيسير النحو، وعقدت المؤتمرات في هذا السبيل في البلاد العربية وخاصة في مصر فلم تخرج عن شيء، وأدلى بعض الكتّاب والمقترحين بطرائق كانت قِدَداً لمثل هذا التيسير، حتى انقلب بعضها إلى تعسير، وأعمل الفكر والروية أهل المطابع في ضم بعض الحروف إلى بعض وإلزام الشكل لها ولم يصلوا إلى منتوج سليم.

وهبت في صميم هذه الحركات ومن قبل عهدها فئة في مصر[1] وبعض البلاد العربية تدعو للكتابة بالأحرف اللاتينية أسوة بما صنع الترك بلغتهم. وفات هؤلاء أن الترك حين بتروا صلاتهم الروحية العربية بإبادة الكتابة العربية في بلادهم كانوا قد آثروا هذا التجديد الخطير لينقلهم من الشرق إلى الغرب فيصبحوا أمة أوروبية، وتفتح أمام لغتهم مجالات الدنيا. وإذا بكتاباتهم اللاتينية تظل محصورة في بلادهم، منطوية على نفسها كطائر مقصوص الجناح، وأصبح الترك مبتوتة صلتهم بالشرق والغرب معاً، فلا هم بلغوا دنيا الغرب، ولا أبقوا على شرقيتهم في الكتابة العربية، كل هذه القضايا الروائع قامت قومة

---

(١) تولى كبرها عبد الغني فهمي، وهو من رؤوس الأحرار الدستوريين حلفاء بريطانية. (الناشر)

واحدة في عصرنا من أجل لغة العرب وشيوع اللحن فيها، وبديلاً من انضمام العقول بعضها إلى بعض في القرائح المتلائمة لإنقاذ لغتنا العربية من وباء اللحن، نهض فريق من المبطلين وأهل البدع ـ كمن يصطاد في الماء العكر كما يقول المثل الذي لعله صيغ ليدل عليهم ـ وهم الشعوبيون، يدعون إلى اللغة العامية، ويلحفون في هذه الدعوة حيثما حلوا لينزلوا بلغة القرآن هوان اللحن، وليذهبوا بها جملة إن استطاعوا. وكانت حرية الرأي ممهدة لهم. فأوغلوا في رجعيتهم وفسادهم. حتى قال أحد العلماء رحمه الله: «هذه لغتنا، لنا أن نصنع بها ما نجده ملائماً لها وميسراً ومفيداً»، وقد أراد أن يتوسط في الحدود بين التزمت اللغوي والدعوة إلى العامية، فأعطى دعاة العامية سلاحاً جديداً ليفتكوا به. ودعا آخرون إلى النزول بالعربية إلى طبقة وسطى، فينهض إليها العامة ليحسنوا مثلها، وذهب عجزة آخرون إلى التزام الوقف على السكون في أواخر الكلمات تخلصاً من الإعراب[1].

ولسنا نشك ومعنا العارفون بالأسرار والدوافع، أن هذه العناصر الهادفة صادرة عن أناس وراء ذواتها، يديرون الحملة الحربية الخفية لتهديم العرب بتهديم لغتهم، وإضاعة شملهم بإضاعتها، وأيديهم الخفية الآثمة هي أيدي المستعمرين والمبشرين ويهود الصهيونية، وقد تكشفت للجماهير العربية أهواء هؤلاء المبطلين الداعين إلى العامية في عصر النهضة الحديثة والوحدة العربية.

ومن وراء هذه الدعوة الجامحة قد بيتوا السعي لانفصام العرب بعضهم عن بعض، إذ كانت اللغة العربية وحدها هي التي تؤلف بين شعوبهم وتجمعهم في أمة كبرى واحدة، كانت خير أمة أخرجت للناس، كما يقرر القرآن الحكيم[2].

وقد ثبت لدى علماء الاجتماع في المشاهدات الاجتماعية، ومطالعات

---

(١) انظر كتاب (الدعوة إلى العامية وتاريخها في مصر) للدكتورة نفوسة زكريا، ط. دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.

(٢) في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]

التاريخ، وتجاريب الأمم، أن اللغة هي التي تصنع الأمة وتحمي كيانها من العاديات والمغيرات، في صميم الحدثان والكوارث التي تهز الشعوب هزاً عنيفاً، وهي التي ترمم بناءها، وتلم شعثها، فإن اللغة وحدها هي الأم التي تدعو أولادها إليها، وما لملم الأمم الشتيتة بعد نزلات الحروب إلا اللغة، ويرفد التاريخ اللغة في النوازل، وأيما أمة ذهبت لغتها فقد ذهبت ريحها من الوجود.

ففي إدخال الضيم على اللغة العربية بما يدعو إليه دعاة العامية وسيلة لتخريبها ـ كما يعبر المعاصرون في أعمال الشغب التي يقوم بها رجال العصابات الجبلية والخلايا الإرهابية وأهل الفتن. فالدعاة إلى إشاعة العامية لإشاعة اللحن واستفحاله إنما هم إرهابيون وهدامون ينبغي أن نعدهم أعداء العروبة والإسلام.

وإني لأسأل التاريخ القومي في لغتنا وأمتنا، كيف يمكن للعرب المعاصرين أن يتآلفوا في وحدة كبرى تلقاء جوارف الغزو الفكري الغربي ومكايد الصهيونية إذا لم تجمع شملهم لغتهم العظمى.

وهل هم متمكنون من هذه الوحدة المنشودة التي ترقد وراء جفونهم كالحلم، ينامون لعلهم يستيقظون على تحقيقها إذا كانت اللغة العامية واللهجات المحلية هي المسيطرة على كلام الشعوب العربية وكتابتها والتحدث بها في الإذاعات والصحف وكتب الرواية والقصص؟.

والدراسة للهجات أمر أصبح مجمعياً يتبين فيه أن كل لهجة عربية في كل بلد مخالفة للهجة البلد الآخر، وربما كان المتكلمون في البلدة الوسيعة الواحدة تتخالف لهجاتهم في الأطراف والأواسط منها، ومتى أصيبت العربية بالضيم المرصود لها تبلبلت واستعمل فيها اللحن على وجه عميم، ويكون يومئذ الخلاص من الوحدة العربية على أيدي دعاة العامية وهُدام لغة الضاد والقرآن، ويدرك يومئذ المستعمرون والمبشرون ما فاتهم في الحروب الصليبية التي ردهم فيها مدحورين نور الدين وصلاح الدين.

وما أظن هذا المقال من سوانح الفكر وبوارح الأدب والتاريخ، وفنون

اللغة والبيان، لكنه (جلجلة) في سبيل التنبيه إلى الخطر الداهم، وهو مثل الأجراس القوارع قبيل نزول الخطوب.

وإن غزو الدعاة إلى العامية في عصرنا وشيوع اللحن في لغتنا العربية المعاصرة حدث رهيب ينبغي أن تدق له هذه الأجراس، وتدعو إلى الخوف منه والاستعداد لمكافحته.

ولنطلق التحذير في آفاق العرب من غزو العامية وشيوع اللحن، فلقد جدَّ الخطر في الدعوة إلى محاربتهما فهما الوباء المعاصر للغة العرب في كل مكان.

* * *

٢ ـ مولد الرسول ﷺ

ذكريات الميلاد تبعث في الفكرة الإنسانية التجديد، فإن السنين والعصور التي تبلي أعمار البشر استطاع البشر نفسه أن يداويها بالذكرى، وأن يعد هذه الجسوم التي تبلى أن وراءها أرواحاً لا تعرف الفناء، فإذا راح الجسم وانطوى، ومضت مواكب الإنسان خلف مواكب نحو البلى، وجاءت القرون لتعفي بمكانها آثار الإنسان على الأرض، برز الإنسان من أعماق الثرى ليعيد سيرته الأولى بالعهود والذكريات.

ولئن كان عهد الرسول ﷺ قد ترادفت عليه الأحقاب والسنون ثم العصور، فإن رسالته العظمى التي أشرق بها على العالم بدينه الإسلامي الكبير حتى ملأ الخافقين بفتح لم تعرفه الأمم، وعلم أنار الأفكار، واعتقاد ملأ النفوس بالحنان والرضوان، فإن ميلاده العظيم ذكرى تُعاد في كل عام لا لتجدد العهد بذلك الدين القيم، وإنما لتعطي الأمة الإسلامية في سائر الأرض وفي ديار النبوة نفحة الرسول ﷺ لتحي النفوس التي تتنسم الحياة اليومية بحياة روحية تكمن وراء الصدور تترامى لهفة عليها وحناناً.

ولعل في ذكرى المولد النبوي الشريف استعادة لسيرته العظيمة التي استطاع مؤلفو مجدها أن يكتبوها بأرواحهم وقلوبهم، وكان في مقدمتهم (ابن هشام) وقد مزجها بالمنثور والمنظوم ووصف فيها مغازي الرسول ﷺ بعد نشأته وتبتله، وكيف دارت حروبه في الجزيرة حتى وحد كلمة العرب وجمعت شملهم على الإسلام. وفي هذه السيرة مآثر الرسول ﷺ في السلم وفي الجهاد، ومجالسه في الحديث والتعليم، وأخباره في بيته وفي مجتمعه وبين أمته.

فمن وراء العصور، من منبثق الرمال أرى شعاعاً يتوهج في شعلة تكاد تعم الأرض هي شعلة نبينا محمد رسول الله ﷺ.

فيا أيها الشهر الربيعي البهيج الذي يكر بذكر الرسول ﷺ إنك لتنفح الشآم من ذرى قاسيون حتى سفوحه الندية بهذه الذكرى الطلية، وإنك لتمتد بأطيابك فتشتمل ديار العرب والإسلام، عليك ألف سلام.

* * *

٣ ـ اللعب بالألفاظ

لم تُنشر.

اللعب صفة من صفات الإنسان المرح تولد معه، وتكاد تكون من غرائزه المقومة لنشأته، ويشاركه الحيوان باللعب، وأكثر الحيوان لعباً القرود والسنانير، وقد يكون اللعب بريئاً كالذي يبدو من الأطفال بعد أن يدرجوا من المهود.

وقد يلعب الكبار، وعرف تاريخ الإنسان لعب الكبار في الجاهلية والإسلام وفي تاريخ كل أمة، وكان هذا اللعب فيها قماراً وعبثاً، وفيه ما يجدد همم أصحابه كاللعب الرياضي وكيف تم أمره بشأن من ليسوا صغاراً فإنه مُذْهِبٌ للوقار ومسقط للمروءة.

ويلعب الفكر ويلعب القلم، وما يأتيان في هذا السبيل قد يُحمد وقد يكون مصاحباً له الذم، واللعب بالألفاظ مقيت، تنفر منه الأذواق السليمة في التعبير وفي حياة البيان.

ولم يكن هذا اللعب محبباً إلى النثر والشعر في أطوارهما من الأدب العربي القديم حتى جاء القرن الرابع للهجرة، فأخذ اللعب بالألفاظ سبيله إلى البيان العربي وفن التعبير، حتى أطلق على النثر الذي يتلعَّبُ فيه أصحابه وعلى الشعر المصنوع الصناعة اللفظية.

والقيام بدراسة مطولة لتطور النثر والشعر في أدبنا العربي القديم والحديث وأثر اللفظ فيهما يدعو إلى تشعب المناحي بما لا يناله مقال، وإنما ينبغي أن يُفرد له كتاب لأن هذه الدراسة لا تجدي إذا كانت مجردة لوجه الفن وحده، وإنما هي ذات صلة بتاريخ الأمة ذاتها، فحين تكون الأمة في صولة مجدها وقدرتها

الفكرية والسياسية يكون أدبها سليماً من الشوائب وتعبير كتابها وشعرائها ملائماً لمجدها المعاصر.

ومتى تحدَّرت القوى السياسية وتضعضعت صولة الحكم وفتر تمكنه ظهر أثر ذلك في منتوج الفكر وثمار القلم، فجف الفكر وأجدبت الأقلام. وحين تكون هذه الظاهرة في أدب أية أمة فإن الصناعة اللفظية تبرز من مكانها مثل أدواء معنوية تصيب الفكر والقلم وتنزل بالأفهام إلى درك وبيل.

ولا نستطيع أن نقول كما لا يقول معنا أحد من النقاد مهما عَنُف بالنقد وتتبع الزلل في التعبير: إن الكتابة العربية منذ كانت في أثريها المنثور والمنظوم قد خضعت للعوامل اللفظية، فالقرآن الكريم يميزه في بيانه الإعجازي العظيم ما فيه من الجمال اللفظي الذي يخلع على المعاني القدسية رونقاً معجزاً لا يستطيع القلم البشري أن يجاريه مهما يبذل من الجهد والتقليد.

كما أن الشعر الجاهلي خضع للجمال اللفظي أيضاً، وكان اللفظ ذا تأثير كبير فيه مع سلامة من الكلفة والتصنيع.

ولقد ظل الميزان معتدلاً بين النثر والشعر في مدى العصر الأموي لا يستطيع أن يهجم عليه اللفظ يشغل أصحابهما بنفسه، حتى دلفت العصور العباسية، وحذق صناعة القلم العربي كتاب فارسيون كان في طليعتهم رجلان، أحدهما أفضل من الآخر وأبقى خلوداً وأحث ذكراً في تاريخ الفكر العربي، وهما (ابن العميد) الذي سعد بلقاء شاعر العرب الأعظم (أبي الطيب المتنبي) وقد زاره بأرجان بدعوة ملحّة منه، ومدحه فعد المتنبي نفسه أنه يزور فيه (أرسطاطاليس) و(إسكندر المقدوني) فقال:

مـن مُبْلِـغ الأعـراب أنّـي بَعْـدَهـا جـالسْـتُ رسطـاليـسَ والإسكنـدرا
ورأيـــتُ بَطْلَيْمـــوسَ دارس كتبـــه مُتَمَلِّقـــاً متبـــديـــاً متحضِّـــرا

فكان ابن العميد من أكتب أدباء عصره من العرب والعجم، فكان يفتن

الفنون في النثر العربي، ويدخل على الجملة العربية الحرة ما يقيدها من السجع المجذوب المستكره، حتى كادت ديباجة كتاباته تكون مثل طنفسة فارسية ذات وشي وزركشة من كل جانب، وكان ابن العميد غزير المعارف إذا سافر حمل معه مكتبة على دواب لتكون كتبه إلى جانبه في كل مكان يحل فيه وقد كتب رسائل كثيرة كلها تلاعب لفظي وصناعة تركيبية تضجُّ معانيها الحبيسة في هياكلها الموحشة، وقد شاع فنه هذا بين مواطنيه في ظلال حكم عضد الدولة البويهي، وملأ المجالس البغدادية حتى عرف بسيد كتاب قومه، وأحب أن يعبث بأبي الطيب نفسه، فأخذ ينقد له شعره وقد قبل المتنبي بنقده لكونه غريباً في بلده، وقد سايره، وهو الذي يأبى أن يكون لأحد من البشر حكم عليه حيث يقول:

تفــرَّدَ لا مستعظِمــاً غيــرَ نفسِــه ولا قــابِــلاً إلا لخــالقِــهِ حُكْمَــا

وإني لمن وراء العصور أعجب له، كيف قبل نقد ابن العميد لشعره وفي ذلك يومئذ غلب للعجم على العرب، وكيف اعترف له بنقده في قوله:

مــا كفــاني تقصيرُ مــا قلــتُ فيــه عَــنْ عُــلاهُ حتّــى ثنّــاه انتقــادُه

وأما الثاني فهو دون ابن العميد في القدرة الفكرية والروح الطيبة وهو (الصاحب بن عباد) الذي أذاق أدباء عصره وبخاصة العرب منهم مرائر في حرمانهم من جوائزه الأدبية، التي كان يغريهم بها، فيشدون إليه رواحلهم، ويسيرون إليه عبر الصحارى الليلَ والنهارَ، فإذا صاروا إليه حجبهم زمناً دون أن يسمح بمثولهم في مجلسه، وإذا مدحوه عاب شعرهم، وردهم بلا مكافأة، وكان هذا ديدنه، ولست أشك بأنه كان مصاباً بانحراف نفسي، وأنه كان مريضاً بإيذاء الأدباء ورجال الفكر، ويحدثنا من وراء العصور الكاتب العظيم أبو حيان التوحيدي التهاويل عن الصاحب بن عباد وما صنع به حتى راح يؤلف فيه كتاباً خالداً بمثالبه.

وقد اجتــاز المتنبي بالصاحب فدعاه إلى مدحه فأجابه شاعرنا العظيم: «لا أمدحـك ولو شاطرتني مالك كله لأني لا أمدح إلا الملوك» فحقد عليـه الصاحب، وألف كتاباً يعيب به شـعره ضاع بين سـمع الأرض وبصرهـا وبقي المتنبي.

وقد كان الصاحب بن عباد من أكثر اللاعبين بالألفاظ العربية يصدرها سجعاً ويعيدها رجوعاً بتلاعيب بهلوانية تفقدها كل روعة في مؤداها الطبيعي ويغالبني تعبير يليق به أحتاج إليه من لغة عصرنا فأقول فيه: كان الصاحب بن عباد بهلواناً دولياً في اللعب بالألفاظ.

وقد كان اللعب بالألفاظ عند ابن العميد والصاحب فاتحة عصر التدهور الإنشائي للتعبير، حتى جاء عصر الانحطاط بزخارفه اللفظية وجموده الفكري فانقلب التعبير العربي إلى صناعة محضة خاضعة لفنون البديع وأنواع البلاغات السمجة والمحسنات المقيتة التي قضت على التعبير العربي[(١)].

وجاء عصرنا الحديث يجرر ذيول اللعب بالألفاظ حتى استطاع القلم العربي بعد الحرب الكونية الأولى ثم الثانية أن يشعر بالحرية، وبنفس الراحة من ربقة السجع والصناعات اللفظية.

وقد نبغ في عصرنا من الكتاب المترسلين من لم يستطيعوا أن يفارقوا الجمال اللفظي فكانت آثارهم القلمية حلية فنية إذ كانوا يوازنون بين دوام الفكرة وجمال اللفظ دون أن يكون لأحد منهما على الآخر سلطان يمحو أثره ويذهب برونقه.

ولست بعد كل هذا أفوت (أبا العلاء المعري) الذي كان شيخاً كبيراً من

---

(١) هذا يصدق على كتّاب الدواويـن، أما الفقهاء والمحدثون والمفسـرون والمؤرخون والبلدانيون والرحالة فكان أسلوبهم مرسل لا يتقيد بالصناعـة الكلامية. (الناشر)

شيوخ القدرة اللفظية في أدبنا العربي القديم مع شمس حكمته وأنوار فكره الثاقب، وكان مذهبه في اللفظ اضطرارياً، إذ أقام ستاراً حديدياً ـ على نحو ما نقول في السياسة والاجتماع المعاصرين ـ حول فكره وأدبه بهذه الألفاظ التي لها عالم خاص بها في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) وفي كتابه (الفصول والغايات) وكانت القوى اللفظية عنده ذات شحنات كهربائية تسيطر على المعاني فلا تنفك عنها، كالذي صنعه في (رسالة الغفران) ولقد نحس ونحن نقرأ أبا العلاء ما يحس به المعجبون بالشاعر الكبير (بول فاليري) الذي كانت ألفاظه تسكن برزخاً عالياً خاصاً لا تستطيع أن ترقى إليه الأفهام، وكان يقول:

إنني أهندس الكلام حين أكتب شعري.

ومعنى قوله: إنه ملك من ملوك الصناعة اللفظية، بل لعَّابٌ كبير بأقدارها، حتى استطاع أن يغير مفاهيمها اللغوية في المعاجم، فالكلمة عنده لها معنى خاص يخلعه هو عليها كما صنع الصوفيون المسلمون في أدبنا العربي، فجاؤوا بألفاظ غير قاموسية وإنما هي منتوجة من معاجم الصوفيين.

فما صنعه أبو العلاء لا يمكن أن يعد بحال من الحالات لعباً لفظياً، لأن التلاعب بالألفاظ يحط من قدر المعنى، بينما نجد أبا العلاء يسمو بمعانيه سموه بألفاظه[1].

ولم يشجع الجاحظ أبو عثمان اللعب بالألفاظ كما ذهب بالرأي بعض دارسيه، وإنما كان يقول بأن اللفظ يميز كاتباً من كاتب، وبذلك ينحو منحى الفكرة الخاصة بالأسلوب من أن أسلوب الكاتب يدل عليه وهو ذاته، كما قال في العصور الأدبية المتأخرة العالم النباتي والأديب الفرنسي (بوفون): «الأسلوب هو الرجل».

---

(١) وهذا يصدق أيضاً في إمام العربية ورافع رايتها مصطفى صادق الرافعي رحمه الله تعالى. (الناشر)

وشهد عصرنا ضرباً آخر من الأعمال الخوارق في لعب الألفاظ ، وهو لغة السياسيين الذين يسمونهم بالاصطلاح الغربي (الدبلوماسيون) فإن الحاذق منهم الذي يتكلم على مقدمات يدير في تعابيره ألفاظاً مرنة حيناً ولزجة تارة أو ممطوطة أو متقلصة ، فيكون أشد لعباً بها من أحذق اللاعبين الإنشائيين الذين كانوا إذا لعبوا بألفاظهم جعلوها تسلية أو ممارسة لطبيعة من طبائعهم الصادقة . أما هؤلاء الدبلوماسيون فإن لعبهم بالألفاظ كاللعب بالنار .

وكم من الحواة اللعابين بالنار والثعابين يجمدون النظر من طول التحير فيما يصنعون أمام المشاهدين، وكذلك فإن السياسيين الدوليين لهم القدرة العجيبة على اللعب بالألفاظ ما لا حدَّ لتقلُّباته وقفزاته .

وكيف كان يدور الأمر والفكر بأن الخالق الذي أعطانا نعمة اللفظ مكسواً بروح الفكر ، أرادنا على استعماله سالماً من كل انحراف ، ومتى عمد المتكلم أو الكاتب إلى أن يسيء إلى هذه النعمة التي جمل الله بها الإنسان فوهبه الكلام بإدخال اللعب عليها ، وجعلها وسيلة بهلوانية فقد عد نفسه في حلقة المهرجين لا الكتاب المفكرين والأدباء الموهوبين البانين .

* * *

٤ ـ مع الفيلسوف ابن سينا

تُرى أشاقني الكلام على ابن سينا في هذا المقال أن أهل فارس دعوا للاحتفال بمرور ألف عام على مولده؟ لئن كان الفارسيون فعلوا ذلك فإن المحمدة في سبقهم إلى هذه الدعوة، وكانوا حفيين بالفيلسوف (ابن سينا) من قبل هذا العصر؛ حين دعا في القرن العاشر الهجري فيلسوفهم (صدر الدين الشيرازي) إلى إحياء الذكرى للشيخ الرئيس. فأشاع ذكره من ذلك اليوم في بلاد فارس. ولا عليَّ أن أسبق حوادثهم في العجم؛ فأحتفي من قبلهم بالفيلسوف الحسين بن سينا.

فأنا أتمثله كما كان في أواخر القرن الرابع من صباه؛ إلى أواخر شبابه، وفي أوائل القرن الخامس حين اكتهل؛ وأطل على الشيخوخة، فمات وعمره الثانية والخمسون؛ فلم يدركه الهرم. كانوا يسمونه شيخاً لأنه لبس في فلسفته وطبّه أعمار الشيوخ الفانين.

إني لأراه كما كان فتًى ساهمَ الفكر كأنما يُشار إليه من العلاء بإلهام. يجيء في العشايا إلى مجالس والده، فيصيخ بالسمع إلى أشياخ كان والده معهم يذهبون مذاهب الإسماعيلية، فيمتعض الفتى من كلام وتنطلق أساريره لكلام.

ولعله كان لا يروقه ما كانوا يأخذون به من الحديث في أمور الدين، ولكنه كان يحبُّ طرائق جدلهم وأفانين مقولاتهم. وخرج من جلساتهم وقد تروّى بالتجادل؛ وعرف أساليب المتكلمين، فلما جاءه معلمه الأول (أبو عبد الله الناتلي) وجد فيه تلميذاً عسيراً كثير الفهم كثير التعبير.

ولم ينج معلمه الأول من مياسمه الكاوية، التي اشتدت منه وحميت؛ بعد

أن صار الإمامَ الفيلسوف الخالد، ولأذكرنه وقد استبهمت عليه وجوه المسائل، فقد كان كالقديسين الذين تدهمهم الكوارث فيلجؤون إلى الله؛ كان يدخل المسجد الجامع فيصلي، ويستجير ربه أن يفتح عليه في فهم المغاليق؛ وتسهيل المعاسير. فإذا خرج من مصلاه، وجاء بيته وقد مر الليل، أدنى سراجه من كتابه؛ وعلق عليه يتفرس فيه؛ ويقرأ؛ ثم يبدي ويعيد. وتأخذه سِنة من النوم؛ فيهب إلى الشراب المنبه الذي أعده من قبل أن يكون أطبّ عصره. فإذا كرع منه جُرعة أو جرعتين، ازداد قوة وانتباهاً، فعاد إلى مسامرة الكتاب: وكان لابدَّ له من غِرارِ نوم، فإذا رنق الكرى على جفنه وكُتُبه منطرحة من حول مرقده؛ رفت الأحلام عليه كطفل بريء، لقد كان يقول: ومهما أخذني أدنى نوم حلمت بتلك المسائل بأعيانها حتى إن كثيراً من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام.

وويح (أرسطو)؛ لقد أجهده منه البلاء. لم يكن الحسين بن سينا عِيّاً ولا فهيهاً؛ ولكن تعايت عليه مفاهيم أرسطو. لأن الكتب التي تُرجمت عن الحكيم اليوناني الأول؛ لم تكن سهلة التركيب، ولا بيّنة التعبير، كذلك عذبه مصنف أرسطو (فيما وراء الطبيعة) فقرأه ابن سينا أربعين مرة ولم يفهمه على مقاصده كلها، واستظهر الكتاب الفلسفي الذي وضعه مؤدب الإسكندر. وبقي في نفسه ما فيها من الضير. حتى كان في سوق الوراقين؛ فإذا دلال يقف به ويبيعه كتاباً بدريهمات ويلح عليه أن يشتريه؛ فيأخذه الفيلسوف الجاهد؛ ويجده كتاب (الفارابي) الذي يشرح فيه الفلسفة العامة عند أرسطو، فيفهمها عنه، ويستتم بها حكمته.

ولكنْ، هل ظلت حالة ابن سينا في البحث والدرس دعاءً في المسجد، وصلاة على نية الفتح، وتهجداً أمام شمعة يرجف ضوؤها على الكتاب؛ ثم نوماً حالماً بحلول المسائل؟ هيهات! فإن شباب ابن سينا قد تقدم، وكهولته قد أخذت بعمره، وحنكته الخطوب فتداهى حتى اتهم باحتكار العلم والانفراد به.

فروى ابن خلكان أن نوح بن منصور الساماني أحضر ابن سينا لمداواته، فوجد ابن سينا عند (نوح بن منصور) مكتبة رائعة، فيها من التآليف ما لم تنله يد

عالم في عصره. فاستأذن بقراءة هذه المكتبة، فأذن له نوح وما اطلع ابن سينا على أكثر ما فيها من نوادر الكتب؛ حتى وقعتْ هذه المكتبة بألسنة الحريق، فتلفت عن آخرها. واتَّهم ابن سينا بإحراقها؛ لينفرد هو بما فيها من المعرفة.

وكما تغيرت طباعه في طلب العلم، فقد تغيرت في صورة هذا الطلب. صارت إليه الوزارة، وأكرمه شمس الدولة صاحب الري ثم علاء الدولة. وسأل هذا الأمير فيه خواصه فمدحوه له وأكبروه. وكان للإمام (عمر الخيام) الشاعِر الفلكي يد في محمدته. فقد سأل (علاء الدولة) الخيام: «ما تقول في اعتراضات الحكيم (أبي البركات بن ملكان) على كلام ابن سينا».

فقال عمر الخيام: «أبو البركات ليست له رتبة الإدراك لكلام ابن سينا فكيف تكون له رتبة الاعتراض».

قلت: لقد تغيرت حال ابن سينا أواخر شبابه وفي اكتهاله، وأصابته فتنة، فسجن شهوراً، وخرج من السجن على نقيض (فيرلين) الذي دخل السجن ملحداً فخرج مؤمناً. وألح على الفيلسوف حب الجسد بعد حب العقل؛ فأودى به الأمران، وغاله الخصمان. لقد مرض فداوى نفسه، ودس له غلمانه في الدواء ما زاد بالداء؛ فلما علم أنه هالك، ترك التداوي؛ ونهض من سقامه متحاملاً، فاغتسل وتاب؛ وجمع غلمانه وعبيده فمنحهم الحرية، واستغفر الله من ظلم جناه، ومات لا له ولا عليه.

لقد لبثتُ على آثاره، ولم يكن شيء أحبَّ إليَّ من فلسفته الروحية، كان عالماً بسيكولوجياً من الطراز الأعلى قبل أن تكون البسيكولوجية في أوروبة، وكان نفسياً فأحب العالم الروحي من خلال النفس الإنسانية، فأكب يسأل علومه عن حقيقة النفس ويحار في هيولاها. تكلم كثيراً في كتاب (الشفاء) وفي رسالته إلى (نوح) عن النفس في إثباتها وتحديدها، ووجودها وخلودها. وساءل كتب الأوائل عنها. وحاول أن يتعرف بها فأعياه الأمر، لأن النفس تستعصي على المعرفة.

ولما عيَّ عن اكتناه حقيقة النفس في علوم الفلسفة والطبيعة، وبلغة النثر والتخاطب لجأ إلى الشعر، وكان شاعراً له زهديات وصوفيات، فراح يناجي الروح بلسانها الذي تفهمه؛ ولا تعي سواه، فتمثلها حمامة ورقاء، وكان مِثْله الشعراء يناجون الوُرْق والحمائم؛ فقال (أبو فراس):

أقولُ وقدْ ناحتْ بقربي حمامةٌ   أيا جارتا لو تعلمينَ بحالي

وقال معاصره (المعري):

أبناتِ الهديلِ أسعدْنَ أو عدنَ   قليلَ العزاءِ بالإسعادِ

وكذلك أحب ابن سينا أن يتعزى في فهم النفس فجعل الشعر سبيلاً لمناجاتها، فسمع هُتاف النفس إليه من العلياء، ورآها تهبط عليه كفراشة هفهافة. إنها الحمامة من الورق مدللة متمنعة، فهي مواصلة مهاجرة، ومواتية متعذرة، يقول فيها في مطلع هذا الشعر:

هبطتْ إليكَ من المحلِّ الأرفعِ   ورقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ

فكان بهذه القصيدة شاعراً رمزياً من قبل أن تخلق الرمزية في الأدب الأوروبي على قلم (بودلير) و(إدغار بو) وعلى لسان (بول فاليري).

كذلك يخلد ابن سينا ولا يضير خلوده أني آخذٌ عليه عنفه في النقد، فقد نقد (الرازي) بأعنف عبارة، وسفَّه فلاسفة عصره، فقال عن الفيلسوف البغدادي (أبي الفرج الجاثليق): من حق تعنيفه أن يُردّ على بائعه ويترك عليه ثمنه، وتشاجر مع أبي القاسم الكرماني بسبب الفلسفة[١].

* * *

---

(١) من مقالاته بعنوان (لحظات مع الخالدين) التي لم تُنشر.

٥ ـ لحظة مع الكاتب أبي حيان التوحيدي

عجباً، ما كان زيُّهُ في حياته؟ لقد وصفوه بأنْ كان صوفياً، وكان لباس الصوفية في عصره طرطوراً مُعَمَّماً يغوص فيه الرأس، وجبةً ضافية تشتمل على البدن. وهل الصوفية إلا الفقراء؟ إذن لقد كان أبو حيان التوحيدي فقيراً منذ نشأته. سكب في (الصداقة والصديق) أفانينَ الحوادث من كل ضرب ماتع، وخبر رائع فيما كان للأصدقاء والمتآلفين من عافية ومودة والتئام ورحمة. ولعله كان يتمنى أن يجد هذا المخلوق المفقود الذي يسمونه الصديق.

وقد سألت نفسي فيم يكتب أبو حيانَ للوزير (ابن سعدان) كتاباً في (الصداقة والصديق) لو لم يكن قد حَرَمَهُ الدهر هذه النعمة، فراح يتحدَّث عنها كجائع يصف للآكلين جمال أصناف الطعام، وحلاوة ضروب الشراب.

بلى لقد كان كذلك هذا الكاتب الفقير، تجهَّم له مجتمعه ولا ذنب جناه. وكان إلى فقره مقيت المنظر، والناس يحبون الطَّلاوة في الوجوه والحلاوة في السمات؛ فراحوا ينْفَضُّون عن أبي حيان.

وكيف تهيَّأ أمره فإني موفور العطف عليه متمن أن يُتاح لي فأكتبَ عنه بالتطويل، لعل ما أصنع له يشفي بُرَحاءه بعد كرور السنين. وأجدني الآن أدفع له من هذا الوعد هذه الدفعة الأولى فأتحدث عن نكبته الكبرى التي نزلت به، مُقْتَصّاً من فاجعه؛ مُتَحَيِّفاً من كان السبب في انكساره وانهدامه.

بلى لقد ينكسر الإنسان مثل قصبة أو إناء أو ينهدم كجدار. وأقوى الناس من تحامل بأدوائه فعاش غير مستسلم للنكبات.

لم يجد أبو حيان غير الوراقة سبيلاً لاكتساب خبزه اليومي، والوراقة على

نحو ما عرفها معاصروه؛ كانت استملاءً للكتب أو نقلاً لها، أو في نسخها على الرِّقاق والكاغِد.

وينبغي عندي أن يكون أبو حيان بعد أن تمرس بالوِراقة صباه وشبابه وسلخ من اكتهاله السنين قد حذَق الأدبَ، واستعلى بالكتابة، وعرف فنون البَيان، ثم أراد أن يتخذ الأدب مكسباً كشأن كل صانع يبدأ أجيراً، ثم يحور أمره إلى سيّد، وينفض عن كاهله صناعة الوِراقة.

كذلك لملم أبو حيان أقلامه، وكفأ دواته، وجمع طروسه، وأبطل الوِراقة، ليتخذ التكسب بالأدب منالةً، ويجدَ في ذلك رفعةً، بعد أن صار إليه من الأدب الخبرُ النادر، ومن الكتابة الديباجة الفائقة.

وكان في عصره علَمٌ من أعلام العِلم وأمير من أمراء الإنشاء، ووزير خطير قد بسط سلطانه على قِطعْ من فارس. فإذا الأدباء وقوف ببابه؛ وإذا الشعراء ينتجعونه كما ينتجع الأعرابي الكلأ والماء في مبارك الصحراء. إنه (الصاحب بن عباد).

وشد أبو حيان الرحال إلى الرِّيّ حيث يكون الصاحب، ولست أدري لعله استدان مالاً واستأجر فرساً حتى جاء باب الوزير منتجعاً. وعلم به الوزير؛ لكنه حجبه أياماً، فلم يأذن له بالمثول، فكان ذلك أولَ صدمة يتلقاها أبو حيان في سَفْرة أدبه، وفي سبيل شهرته.

وحين أذِن له الصاحب بالمثول؛ لم يسمح له بمجالسته أو منادمته؛ وإنما نبذ إليه مُجلَّدةً وقال له: انسخها.

فقال أبو حيان:

إنما انتجعتك لغيرِ هذا، وسوق الوراقة رائجة في بغداد.

ثم أطاع أبو حيان تصرُّف قدَره، فقعد ينسخ للصاحب مجلدة كان يتشكى منها ويقول: لقد كاد نسخُها يأتي على بصري؛ ويفني عمري. وراح بعد حين

يقصّ على مؤرخي أدبه ما صنع معه ابن عباد ويصف تنكره له وتجهمه.

واندفع أبو حيان في كتبه يذكر صفات الصاحب، ويخلع عليه النعوت اللوازمَ لمثله؛ فكان مما قال عنه: إنه «لا يرجع إلى الرقة والرأفة والرحمة، شديد العقاب، طفيف الثواب، طويل العتاب، بذيء اللسان، سريع الغضب، حسود، حقود، وحسده وقف على أهل الفضل، وقد قتل خلقاً، وأهلك ناساً، ونفى أمة تعنتاً وتجبُّراً وزهواً».

وعمد أبو حيان إلى إظهار صفات الصاحب الكوامن في دخائل طبعه، فصوّره كيف كان يسفِّه رائديه، ويُخزي مادحيه ليحرمهم الجائزة. فكان في أوقات العيد يصنع شعراً يمدح به نفسه، ثم يدفع هذا الشعر إلى (أبي عيسى المنجم) ليدخل به عليه والملأ جلوسٌ بحضرته؛ قد أرادهم على ضرب من الشعر يبغتهم به؛ ليرى سوانح خواطرهم في ساعة البديهة حين يُرْتج عليهم، وإذا بأبي عيسى المنجم يندفع فيدخل على الصاحب ويخلطُ نفسه بالحاضرين؛ ويتلمظ وهو يتمتم ويُري القومَ أنه يَقرِض شعراً؛ وإذا هو يستأذنه بإنشاده فيما طرحَ على الشعراء. ويسمعه الصاحبُ فيستجيد شعره، ويستحسن بديهته، ثم ينيله الجائزة وحده؛ ويغيظ من كان عنده من الشعراء، ويقهرهم قهراً وبيلاً.

وقد وجد أبو حيان أن نقيصة الصاحب سببها الحسد. فكان يجده شديد الحسد لمن أحسن القول؛ وأجاد اللفظ. وكان أبو حيان موصوفاً بهذين، فإن أسلوبه في كتابة العربية أسلوب من ملك ناصية القول، ولفظه في تعابيره لفظ من أجاد الانتقاء، وبرع في الأداء. إن له لترسلاً ما عُرِفَ لمثله غير الجاحظ أبي عثمان. فهو الجاحظ الثاني في كتّاب أدبنا العربي. كان لا يتعاظمه باب من أبواب المقال. فهو يَحشد التعبير، حَشْد المغير. نادم الليالي بأحاديث الأدب وأخبار المثقفين في عصره الوزير (ابن العارض). وكتب مطارحات هذه الليالي لصديقه (أبي الوفاء المهندس)، وأعطى أدبنا العربي من رصين الكتابة أنقى ديباجةٍ، وأروق أساليب النثر.

لقد عاش فقيراً فلم يفز في حياته بشهرة مطبقة كالتي كانت للجاحظ ؛ فإن الجاحظ قد عُرض عليه الديوان، ومن عرض عليه الديوان فقد أصبح وزيراً. فأبى ذلك واعتذر. وعاش مَطلوباً عند الخلفاء، مَخطوب الأدب للوزراء والقضاة.

وأما أبو حيان فقد لزمه ما لزم الفقراء في كل دهر من سوء الكَيْلَة وتجهم الوجوه.

ولست أجد في أدبنا العربي كله وفي آداب الأمم من انتقم من العلم والأدب مثلما انتقم أبو حيان، إنه جمع كتبه في آخر حياته، الكتب التي لم يكن قد أطلع عليها الناس؛ وأحرقها بمسوداتها وكراريسها. لقد أحرقها ضناً بها على من لا يعرف قدْرها بعد موته، فقامت عليه قيامة الأدباء ولاموه، فكتب إلى واحدهم وهو القاضي (أبي سهل) يقول:

«... والتهب في صدرك من الخبر الذي أنمي إليك فيما كان من إحراق كتبي النفيسة بالنار؛ وغسلها بالماء، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك».

كذلك فعل الكاتب الخالد أبو حيان، ومات في آخر المئة الرابعة للهجرة، بعد عيشة مملوءة بالضنك ونكران الجميل، وقد زاد في بلائه أن كان من معاصريه مَنْ يتهمه بالزندقة، وهو الذي صنف للصوفية (الإشارات الإلـٰهية)[1]..

* * *

(١) من مجموعة مقالاته (مع الخالدين) التي لم تنشر.

الخاتمة

وبعد: فهذه جولة سريعة في رياض المحاسني طافت بحياته الغنية بالعطاء، وعرَّفت بآثاره المتميزة بالإتقان والإبداع، ووقفت عند بعض آثاره مستفيضةً بعض الشيء، عارضة من نماذج يراعه ما يغري القارئ ويثير شهيته نحو أدب رفيع سهر له صاحبه، وتأنق به ليجعله ذخراً للأمة وذكراً له.

* * *

الفهـــرس

الفصل الأول
لمحات من حياته

الفصل الثاني
أعماله والتعريف بأشهرها

* * *